رواية



كوكو سودان كباشي

سلوى بكر

ـ ١ ـ

أوراقي

حتى وقبل أن يبحر، إبحاره النهائي في محيطات العدم، بأيام قليلة، كنا ـ هو وأنا ـ ما نزال وكعهدنا دومًا، نمارس لعبتنا الأثيرة القديمة، التي عودني على لعبها معه منذ طفولتي الأولى الغريبة، كنا نتشارك فيها أيًّا كان ما يفعله أو يشغله: واقفًا يثير دوامات مكرونة لسان العصفور في وعاء الحساء أو أمام مرآة الحمام مجتثًا حشائش ذقنه السوداء العنيفة، أو منحنيًا جاهدًا بالفرشاة كي يحاكي حذاءه المرآة تهيئًا لواحد من لقاءاته الغرامية المزمنة، كان ينشد بصوت قوس قزح محاولاً الوصول إلى فريد الأطرش.

ـ يا زهرة في خيالي.

فأرد بدوري: رعيتها بفؤادي.

كنت كثيرًا ما أخرج الكلمات من فمي ملحونة بمزيج التأفف والملل، فيومًا بعد يوم وسنة وراء سنة، كنا نتحاور حبًا ولعبًا بكلمات هذه الأغنية التي بدت لي مع مرور الوقت وكأنها أحد الواجبات المدرسية الثقيلة المفروضة عليَّ فرضًا

والمكرورة بإزمان، لكن ذات مــرة وعنــد ذلــك المســاء المحفورة تفاصيله على مسلة الذاكرة الأبدية فــي داخلــي، وعندما ألقى رأسه العامر ببياض الزمن إلى الخلــف علــى مسند كرسيّه الهزاز، تحت الشباك الملامس شيشــه لفــروع شجرة المانجو العتيقة، أدركت وقتها أننا لن نغنــي أغنيتنــا القديمة بعد ذلك أبدًا، وكنت خلال ذلك قد شعرت بنفاد هواء البيت كله فجأة حتى كاد صدري أن ينطبــق بعضــه علــى بعض وبتّ على وشك الاختناق بينما انقطع التيار الكهربائي فأظلمت الدنيا في عيني ظلامًا على ظلام، أما قططه الخمس الأليفة: بندق وفستق ومشمش وفلّة ورزّة، فقد بــدأت تمــوء مواءً موحشًا مؤثرًا، دفــع زوج الكنــاري للصــداح بلحــن جنائزي مهيب داخل قفصه المعلق قرب شبّاك المطبخ، ثــم بدأت عيناي تمطران مطرًا عنيفًا، دفع الســمكات الــذهبيات الست، والثلاث السوداوات الكانسات للفضلات إلى الخــروج من كرتها المائية الزجاجية تاركة محيطها المحدود، والسباحة في أرضية الغرفة الغارقة بفيضان دموعي، ورغم ذلك كلــه فإن شعورًا هائلاً بالغضب تملكني وظل يلازمني منذ ذلــك الحين وحتى الآن، فأنا أظن أن ذلك الرجل الذي هو أبــي،

أفسد حياتي بالكامل، وتركني في نهاية الأمر، أتجرّع عذابات عزلة المغترين، ووحدة الساخطين على الـــدنيا، والـــذين لا يعجبهم العجب ولا حتى الصيام في شهر رجب كمـــا يقـــول المثل الشائع.

لقد ظل يقنعني دومًا، وبطريقته القطيفيـــة المهيمنـــة والمدغدغة للحواس، وهو يضمني إلى صدره مرّة أو يمسِّـــد شعري بحنان أبوي دافق مرة أخرى بأن الكمال هو الغايـــة والهدف في هذه الحياة ولهذا فأنا لا أصلح للرســـم والفنـــون الرفيعة لأني كما قال موهوبة جدًا في الرســـم " ولكـــن يـــا حبيبتي، هل ستكونين يومًا مثل محمود مختـــار أو بيكاســـو مثلاً؟، هل تحبين أن تكوني رسّامة والســـلام؟ فنانـــة مثـــل عشرات الفنانين الذين لا ذكر لهم ولا صيت؟ انظري إلـــى حالتي، أنا صوتي جميل يشبه صوت فريد الأطرش، ولكـــن هل سأكون يومًا مثله أو مثل أم كلثوم؟ لقد فضّلت أن أكـــون مديرًا للحسابات في بنك على أن أكون مطربًا محترفًا، يقول الناس عنه بعد سماعه: " يعني! لا بأس به على أية حـــال " وهكذا ووفقًا لنظريته التي لا ترضى بالوسطية أو أنصـــاف الحلول في الحياة، دفعني لدراسة مواد لا أظن أنني أحببتهـــا

يومًا ــ مثلما لم أحب صورتي في المرآة ــ اسمها القوانين، وبقيت طوال فترة دراستي لها في كلية الحقوق أشعر بـأنني لا أنتمي إلى عالم الحقوق، وأن كل ما أتعلمه في هذه الكلية هو في الحقيقة أساليب رفيعة معقدة ابتكرها البعض للتحايل على البعض الآخر في هذا العالم، كما أن مستقبلي العملي وما حققته بعد تخرجي واشتغالي بالمحاماة، إنما كان يرجع إلى مهارتي في هضم تلك الأساليب والطرق واستخدامها كسلاح رادع للآخرين.

ضغينتي الكبرى والتي طالما حملتها لأبي هو أنه نجح وعلى نحو غير مرئي أو محسوس، في إبعاد كل الرجال الذين حاولوا الاقتراب مني، منذ أن صرت شابة يافعة تلفت أنظارهم، فكلما توهمت أنني وقعت في غرام أحدهم، سرعان ما يداخلني شعور بأنه بالونة ملونة ضخمة ستنفجر وتتبدد عند أول شكة دبوس لها، فالمقارنات بين أي من الذين عرفتهم وبين أبي سرعان ما كانت تتداعى بداخلي، وتحول بيني وبينهم وتتحول إلى قوة مركزية طاردة تنفرني من كل شاب مهما كان، حتى ذلك الذي بدا كامل الأوصاف ذات مرة، أو الرجل الناضج المقطوف لتوه من شجرة،

سرعان ما أقنعت نفسي بأنه ثقيل الظل، روحـــه لا تعـــرف الخفة، وبدا لي ككائن بلا طعم أو لون أو رائحة كفاكهة هذه الأيام المصنوعة صنعًا بالأسمدة وهرمونات الزراعة.

كان أبي يمدني بشحنات حنان خرافيـــة وعواطـــف أبدية متطرفة، ظلت تلازمني حتى بعد مماته، جعلتني أظـــن دومًا أنني لن أجدها لدى أي إنسان آخر حتى ولو مات في دباديبي، فالتشكيك في جدّية مشاعر الرجال الآخرين، وعدم أخذ التنهدات والزفرات والكلمات الرقيقة الحنونـــة وحتـــى الدموع أحيانًا بمأخذ الجد، ظل اللواء الخفاق علـــى ربـــوع روحي طوال الوقت، وقد ظل هذا الأب ـــ وهذا ما ظننتـــه طويلاً ـــ مكرّسًا حياته لي بعد وفاة أمي عندما كنت طفلـــة رضيعة لم يتجاوز عمرها شهورًا قليلة، ولـــم يتـــزوج بعـــد وفاتها قط، لكن ذلك لم يحل بينه وبين عالم مـــن الحبيبـــات والعشيقات، بت أدرك وجودهن في حياته شيئًا فشـــيئًا كلمـــا كبرت ووعيت، وكانت هاتيك المعشوقات من بنات الجيران، أو أخوات أصدقائه، أو حتى خادمات جميلات مستقدمات من الريف كان يمكن إضافتهن إلى مجموعته النسائية الخاصة.

ولعل عينيه الجميلتين العميقتين حقًا، وملامحه الذكورية القوية وجاذبيته الشخصية المؤثرة، كانت مجتمعه وراء كل ذلك العشق وذلك التدله الشديد من النساء به.

غير أن وسامته وجاذبيته هذه لم تكن على قائمة ميراثه الذي تركه لي، وهو ما تلخّص في معاش محدود لمدير حسابات في بنك فرنسي شهير جرى تأميمه بعد ثورة ١٩٥٢ وخمس قطط روميّه مخلّطه على أنواع بلديّه شاركت في رثائه كما أسلفنا، وكانت هذه القطط الخمس في الأصل زوجًا واحدًا فقط استوطن شقتنا الأرضية، لكنه سرعان ما استباحها مع ذراريه، إضافة إلى ذلك كانت هناك عمّتي الطيبة الثرثارة المصابة بربو مزمن، وبسؤال عن الهدف من الوجود، خصوصًا وأن ربوها طالما دفعها لتأدية بروفات وفاة بين حين وآخر؛ ثم هناك قارورة الأسماك الذهبية التي كثيرًا ما كان يتفاخر بها المرحوم لأنها مصنوعة من الكريستال التشيكي الفاخر، أهداها له صديق ضابط كان قد سافر في بعثة تدريب عسكرية إلى براغ أيام الودّ الاشتراكي بين مصر والكتلة الشرقية.

ساقه الصناعية، كانت من دعائم التركة أيضًا، فهي الساق التي مُنح لأجلها نوط الشرف العسكري، بعد مشاركته كضابط احتياط مجند في حرب ١٩٦٧ وبعد تخرجه من الجامعة، ومن فضائل هذه الساق أنها زكّته للحصول على وظيفة في بنك، ما كان من الممكن أن يحصل عليها إلا بالرشاوي أو بالواسطة، لكن أذرع الجيش الممتدة إلى كل مكان على الخريطة المصرية وخصوصًا بعد أزمة مارس الشهيرة، كانت قادرة على تعيينه، ليس في بنك مرموق فقط ولكن في أي مكان يرتئيه أيضًا، وإلا: إلى أين يذهب ضحايا الحروب الفاشلة من المعوقين والمشوهين لولا تلك اليد الطولى المانحة، والسلطة العاتية الرحيمة لجيش التحرير؟ عمومًا لم أضع الوقت وقررت ألا أستسلم للحزن وأن أكون امرأة عملية، فتصدّقت على روحه بالعصفورين والساق البَركَة، والحوض الكروي بسمكاته جميعًا، ثم اقتنعت القطط بالتي هي أحسن أن تسعى في مناكبها ولا تتوقع مني أن أطعمها أو أخدمها أو أزيل فضلاتها، وأنني لن أسمح لها باستعبادي واستغلالي بلطفها وظرفها وحركاتها اللذيذة ونظراتها البريئة المعبرة مثلما كانت تفعل مع المرحوم

فيضعف أمامها ويرضخ لكل طلباتها ورغباتهـــا؛ ويبـــدو أن الفكرة التي اقترحتها لم تعجب جماعة القطط اللئيمة كليًا فقد استطاعت أن تملي عليَّ شروطها في النهاية، فوافقت علــــى مضض أن تنط وتدخل من شبابيك الشقة الواقعة في الـــدور الأرضي لتبيت الليل في الداخل، على أن تمضــــي نهارهـــا خارجًا في التسكع والشمس والتصيد في الحديقـــة الصـــغيرة أمام العمارة ومناورها والشوارع المحيطة بها. عمتي، على رغم عجرفتها ونزقها، اعتبرتها أثمن ما في تركة المرحوم، خصوصًا بعد أن أغلقت شقّتها بالضبّة والمفتـــاح، وجـــاءت بكامل إرادتها تعيش معي، حتى لا أظل وحيدة غلبانة، لكـــن ذلك لم يمنع من عقد صداقة وحسن جوار بيننا، فبعد خبرة ما يزيد على ثلاثين سنة من التعامل معها، كنت مؤمنـــة بأنهـــا الوجه الآخر للعملة التي هي أبي، فهي امرأة ـــ على الرغم من ربوها ـــ دائبة التأنق، محبة للرجال ولا تتـــورع عـــن خوض أية علاقة تعن لها بواحد منهم، وقد تزوجت مـــرتين، وحازت بعد ذلك على لقب مطلقة مزمنة، وهـــي لا يعجبهـــا العجب، ولا حالي، خصوصًا شكلي وطريقة لبسي ورفضــــي إطالة شعري والزواج، وكانت معاهدتي معها تنص على ألا

تتدخل في شئوني بالفعل أو القول أو التعليق على ما أفعل وألا تزنّ على دماغي بمسألة الزواج بعبارات من نوع " لأنك يا خالدة يا حبيبتي كبرت، وسنة وراء سنة يفوتك قطار الزواج وتخنشري ولا يقدر أي رجل أن يبصّ في خلقتك ".

أما أنا فقد تعهدت بعدم التدخل في أمورها الخاصة، خصوصًا في لون شعرها، حتى ولو صبغته بالأحمر الناري، وهو ما كنت أنتقده دائمًا وأرى أنه غير ملائم لسنها ويحتاج إلى عربة مطافئ كاملة للقضاء عليه، وكذلك ألا أعلّق على ملابسها الغريبة ذات الألوان اللامعة الفاقعة والتي تبدو معها وكأنها مروضّة نمور في سيرك، وأن أكف عن نهرها لشربها القهوة بجنون ولتدخينها سجائر كليوباترا طوال النهار والليل وكأنها مدخنة عربة بطاطا، ولفتحها الكوتشينة وبعثرة فلوسها على العرافين والسحرة وقراءة الكف والودع والفنجان بحثًا عن زوج محتمل.

ورغم كراهيتي لنصائحها، إلا أنني كنت أضعف أمامها أحيانًا لكثرة زنّها على أذني فشرعت مرّة في إقامة علاقة عاطفية مع شاب زميل لي بمكتب المحاماة، لكن سرعان ما نجح أبي في إفسادها وهو راقد في تربته، فرغم

انجذابي الأوّلي لهذا لزميل ورغبتي فيه، إلى أن مشاعري تجاهه أخذت تبهت يومًا بعد يوم. كنت أعقد مقارنات بينه وبين أبي تتعلق بعشرات التفاصيل في شخصيته وعلاقتنا، أدت في النهاية لأن أصنّفه وفقًا لها فلاحًا جلفًا لا يعرف من المدنية غير القشور، فحذاؤه ليس نظيفًا بالقدر الكافي وهو لا يستعمل مزيلاً للعرق، ناهيك عن أنه لا يضع عطرًا مهما كانت المناسبة، حتى ولو كانت الذهاب إلى السينما، ثم إنه لا يتأنّق في ملابسه مثلما كان أبي، ولا يمنحني تلك الأحاسيس التي طالما أغدقها عليَّ أبي بلا حدود والتي أشعرتني بأنوثتي دومًا، ولم يعاملني مثلما كنت أرى أبي يعامل النساء: المرأة التي هي كل نساء الأرض، كاملة الأوصاف والخصال والمحاسن فلا قبلها ولا بعدها جادت الأرض أو ستجود بمثلها.

لقد أشعرني أبي ومنذ بداية طفولتي بأنني الزهرة الوحيدة في حديقته وأنني المرأة الصغيرة الأنثى بالفطرة، فكان يحرص على تمشيط شعري بنفسه ويتفنن في ابتكار تسريحات تلائم خصلاته العصية المتمردة وتبرز ملامح وجهي، وعندما بدأت طور المراهقة، وبدأ جسدي يتشكل

مفصحًا بجلاء عن معالم حواء الخالـــدة جلـــب بنفســـه لـــي حمالات صدر غالية وراقية النوع حتى لا تفسد وتترهـــل ـــ كما قال مازحًا معي ـــ الرمانتان النضرتان علـــى الغصـــن الرطيب، ثم إنه أصر على انتعالي أحذية بكعوب عالية، كنا ندور سويًّا على مدى ساعات في الشـــوارع علـــى المحـــال نتفحص ما في واجهاتها الزجاجية، لننتقي منها ما يلائم قدمي وألوان فساتيني، وذلك دون أن يعبأ بالوقت أو يستجيب لمللي وضيقي ونفاد صبري، ورغبتي في العودة الســـريعة مـــرة أخرى إلى البيت.

كان ـــ رحمه الله ـــ يصطحبني معه أحيانًـــا للقـــاء واحدة من عشيقاته، لتساعده في ابتياع ملابس متميزة لي من محلات أنيقة لا يعرفها هو، وكنا نخرج من هـــذه المحـــلات فندخل ثلاثتنا إلى السينما أو نجلس بعض الوقت، في مقهـــى أو مشرب لنحتسي شيئًا، وساعتها كان أبي يصرّ عامدًا على تدليلي ومدحي ونعتي بأنني أجمل فتاة في هـــذا العـــالم، ولا يبخل بكلمات دون ذلك على السيدة الجالســـة معنـــا وكأنـــه يخشى أن يستثير غيرتها وحنقها.

عندما كنت أرجع إلى البيت بعد ذلك، وأتطلع إلى المرآة مزهوة، وقد رحت أرتدي ما ابتاعه لي، كان سطحها اللامع المصقول يفحمني بعبارة قصيرة مقتضبة "إياك أن تصدقيه!".

وهكذا أفسد أبي علاقتي بذلك الشاب، وعلى طريقة " إدارة الصراع عن بُعد " ،ولكن وللحقيقة أيضًا، فإن ذلك الشاب أذهلني بعدم درايته بما اعتبرته دائمًا من البديهيات الأولى، ووفقًا لما كان عليه أبي، فقد فجعني ذلك الفتى بعد أن اكتشفت أنه يظن أن لون بلوزتي الباذنجاني إنما هو نبيذي، كما توصلت إلى حقيقة مفادها أن أنفه بلا وظيفة، فهو لا يميز رائحتي الخاصة، رائحة جسدي الممزوجة بعطر " دموع الملائكة " الذي عودني أبي على إدمانه وكان يقول: " إنه يمنحك سحر الملائكة الخرافي، ملائكة الأرض المطيّبة بدموع نادرة لكائنات سماوية غامضة، تخبئينها خلف حلمتي الأذنين وفي مغارة ما بين النهدين، فتتحد كيمياء الجسد النابضة بشرايينه عند تلك المواضع وعند الرسغين، لتجذب كيمياء رجل واحد أثير بجاذبيته الخارقة، رجل يظل أسيرًا لذلك العطر مدى الحياة ".

لم أكن على اقتناع كامل بنظرية أبي العطرية هــذه كثيرًا، بل وكانت تشعرني أحيانًا بأنه رجل داعــر بــالفطرة طالما بشَّر بالخطيئة وأغوى النساء وأوقعهن في حبائله، حتى بعد فقده لساقه، بل واستغل هذه الساق لتضفي عليه شيئًا من الرومانسية والتراجيديا الغرامية المؤثرة، لكن ها أنا أتعلــل بهذه النظرية العطرية الأبوية، وأستخدمها أداة للإجهاز على علاقتي بهذا الشاب المسكين، الذي لم يفهم أبدًا سببًا لانقطاع علاقتنا المفاجئ، ولفتور مشاعري تجاهه، فلقــد كــان مــن الصعب عليه أن يفهم كيف أن أبي مــا زال مصــرًا علــى إقناعي حتى بعد وفاته، بأنه الرجل الوحيد المطلق الرجولــة في هذا العالم، وأن كل من عداه من الرجال سيظل في حدود النسبي، وأظن أنني لهذا السبب بت أكرهه ... أكرهه إلــى حد البكاء عليه كلما تذكرته بين الحين والحين ... ولم لا ... ألم يفسد حياتي.

وعلى الرغم من تأثير أبي الهائل على حياتي وهــو الرجل الأم، والرجل الأب، والرجل المثال الــذي يصــعب الخروج عنه، إلا أنني ــ والحق أقــول ــ تــأثرت برجــال آخرين في حياتي، وبعد مماته، صحيح أن هؤلاء الرجــال،

كانوا مختلفين عنه مائة وثمانين درجة، وصحيح أنهــم لــم يكونوا مثله مصرّين على امتلاكي واحتوائي مثلمــا فعــل، وعلى الرغم من أنهم أثّروا فيَّ على نحو مغاير تمامًــا، إلا أنني لم أستطع الفكاك من إسارهم، لقد أسروني إلــى الحــد الذي دفعني للكتابة عنهم ذات يوم، وأنا التي ما فكرت فــي الكتابة، بل وكنت أكرهها كراهيتي للبن والحليــب والســمك وكتابة موضوعات الإنشاء والتعبير في مادة اللغة العربيــة عندما كنت تلميذة في المدرسة، وحتى كتابة الخطابات كنــت أكرهها كذلك ولم أكتب منها إلى القليل عنــدما اضــطرتني الظروف، فكتبت لأخي غير الشقيق الذي عاش مع أبيه فــي هولندا منذ سنوات بعيدة، وكانت تلك الخطابات نوعًــا مــن أنواع التواصل بيننا، وهمزة وصل لرحم انقطعت صلته منذ زمن بعيد، خصوصًا بعد وفاة والده ووالدي.

اشتغلت بعد تخرجي بشهور قليلة في مكتب محامــاة معروف بوسط البلد، كان صاحبه صديقًا قديمًا لأبي من أيام الدراسة، ونديمه في شرب الخمر ولعب القمار، وكان الرجل في مطلع شبابه من المناهضين للاستعمار الإنجليزي، شارك في جمعيات سرّية مسلحة قامت باغتيال عدد مــن عســاكر

الإنجليز، وقضى عدّة سنوات في السجن أيام الملكيـــة لهـــذا السبب، وقد خرج بعدها ليفتح مكتب المحاماة هذا، وهو شقة في عمارة ضخمة تعود إلى الزمن الإمبريالي كانـــت أحـــد أملاك والده الثري، وقد جرى تأميمها بعد الثـــورة واحـــتفظ الرجل بالشقة كمكتب، وكان من مزايا عملـــي فـــي مكتـــب المحاماة هذا، هو أنني استطعت، ووفقًا للقـــانون الاحتفـــاظ بمعاش أبي بعد وفاته، باعتباري أعمل في قطاع خاص، وقد ظل هذا المعاش هو المصدر الأساسي لدخلي المحدود، فمـــا أتقاضاه من راتب نظير عملي بالمحاماة ضـــئيل ومتنـــاقص دومًا بسبب الارتفاع المزمن في أسعار السلع والخدمات.

ذات يوم وأثناء عملي في المكتـــب، تعرّفـــت علـــى رجل، نحيل قصير، له أنف ضخم وعينان شديدتا الاتســـاع بالنسبة لمساحة وجهه الصغير، وذلك من خلال قضية وكّلت للاشتغال فيها مع زميل لي بالمكتب. كان محمد عبد الحفيظ بركات قد جاء إلينا ؛لأنه وجد من أشار عليه بطلب تعويض من أمن الدولة في مصر لقاء ما لاقاه من معاناة وتعذيب. هو متزوج ويعول أسرة كبيرة العدد مكونة من سبع بنات أصـــرّ على إنجابهن بدأب واحدة تلو الأخرى، مراهنًا على القـــادر

الجبار أن يأذن ذات يوم وتكون واحدة منهن ولــدًا، ولكــن محمد عبد الحفيظ بركات لم يكسب الرهان، فاضــطر إلــى اعتزال لعبة الحفاظ على النوع البشري، ولربما اضطر إلى ذلك بعدما أحالته الطبيعة إلى الاستيداع قصرًا، مدّخرة قوّته وصحّته ووقته، في سبيل قضايا أهم تتعلق بالوجود ولــيس بالنوع، إذ كان عليه أن يعمل ثماني عشرة ساعة يوميًا، سبعًا منها كعامل في الشركة العامة للحاصلات الزراعية، والبقيــة في تنظيف شقق وبيوت بعض موظفي وموظفــات الشــركة الذين استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وذلك حتى يتمكن محمد عبد الحفيظ أن يلقم سبعة أفواه مفتوحة بالخبز والطعام، إضــافة إلى فم أمه المسئول عن معيشتها والتي تقيم معه بالبيت ذاته، وفم زوجته، فهي من المســتحيل أن تعمــل خــارج البيــت لتساعده وهي المرأة المسئولة عن المطبخ والكنس والغســيل لعشرة أشخاص بالتمام كل يوم. ذات يوم، شعر محمد عبــد الحفيظ بركات ووفقًا لأقواله، بأنه شارب من كيعانه، والدنيا في عينيه أضيق من خرم إبرة، فطلبات العيال فــي زيــادة، وأمه أصيبت بالفشل الكلوي وتحتاج لغسيل الكلية، وهو نفسه لم يعد بقادر على ممارسة المتعة الوحيدة المتبقية لــه فــي

الحياة بعد فقدانه قدرته الجنسية، وهي متعة شراء كيس لــب أبيض بخمسين قرشاً وقزقزته عند انتهاء شغله بعد الظهــر كل يوم، والسير إلى البيوت التي يعمل بها في ضواحي البلد، فلما فكر وفكر، وقلّب أمره على كل وجه، وحسب حســبته مرارًا، ووجد أنها فاشلة دومًا وبلا جدوى، وتوصل إلـــى أن حالته ميئوس منها في هذا العالم، ولا سبيل أمامه لمواجهــة أعباء الحياة وكل هذا الهم الكبير الملقى على عاتقــه، قــام ودون أن يدري كيف فعل ذلك ــ وفقًا لأقوالـــه ــ بشــرب سائل التوكسافين وهو مبيد حشري فعال ويستخدم على نطاق واسع للقضاء على دودة القطن، ولكنه مُجرّب ومختبر علـــى نطاق واسع أيضًا في الريـــف كأفضـــل وســيلة للانتحـــار، وأرخصها أيضًا، إضافة إلى توفره في الأسواق، لكن يشـــاء الحكيم العليم أن تفشل عملية محمد عبـــد الحفـــيظ بركـــات الانتحارية الكبرى فشلاً مدويًا، إذ يبدو أنه لم يخطط لها كما يجب، فقد شاهده فلاحان بالصدفة، كانا يعبران الشارع، وهو جالس تحت شجرة الكافور على الطريق الزراعـــي، بينمـــا يشرع في تجرع أولى جرعاته التوكسافينية، فأسرعا إليـــه، ودفعا بكوز التوكسافين بعيدًا عن فمه، وعلى إثر ذلك شـــاع

الخبر في البلد، مما أدى إلى أن يتلقى محمد عبد الحفيظ بركات توبيخًا ملائمًا يليق بالمناسبة من زوجته المصدومة من هول الخبر، وابنته الكبرى التي لم تصدق، ولامته بدورها قائلة " أنت جرى لعقلك شيء يا بابا "، ثم توبيخ أمه التي جاء دورها بعد ذلك فراحت تتصعب وتبكي مولولة وصوتها الخشن المحشرج ينعته بأقذع الشتائم ثم " يا خسارة تربيتي لك يا محمد، يا عرّة الناس، يا جلاب الجرسة، يا فاضح أمك كل يوم والتاني"، ثم إنها صرّحت له وأمام كل أفراد الأسرة وعلى طريقة مغايرة ــ بالطبع ــ لمذيعات التليفزيون القومي، بأنه أناني، حقود، حسود، طماع، ويريد أن يستحوذ على أعز ما تملك: كفنها الذي جاعت وصامت أيامًا طويلة على مدى عمرها، بعد أن مات أبوه، وظلت تضع القرش على القرش وتدخر كل مليم أحمر لشرائه حتى يسترها يوم تقف بين يدي الله عندما يواتيها أجلها لتبعث في اليوم العظيم.

آخر توبيخ تلقاه محمد عبد الحفيظ بركات، كان من شيخ جامع البلد، الذي عنفه بكلمات سريعة، ثم رسم له كروكي صغيرًا لما سوف يصيبه في الآخرة، وبالكلمات

بالطبع، فأولاً "ستدخل جهنم بالخطوة الســريعة يــا محمــد، وتتشوَّي في نارها وكأنك كوز ذرة صيفي، وبعــدها يشــيط جلدك ولحمك، ولما تصفي جثتك بالتمام تقدم عظامك الباقية لكلاب جهنم جميعًا لتنهش فيها، ثم إنك لن تعرض على جنة وستحرم حرمانًا نهائيًا لا عودة فيه، من أنهار العسل واللــبن وفواكه الجنّة وخصوصًا التين والعنب والبلح الرطب "، ولما كان محمد عبد الحفيظ بركــات جائعًــا جــدًا أثنــاء ذلــك، وعصافير بطنه لا تكف عن الزقزقة مطالبة بأية لقمة، فلــم يستطع تحمل استماع المزيد من هذا، وراح يبكــي بحرقــة ونهنهة كالعيال، حتى أن شيخ جامع البلد، اضطر إلى إسكاته ومواساته، وهو أن يقوم أولاً بالمداومة على الصلاة والصوم والاستغفار كل يوم مائة وخمسين مــرة، وثانيًــا التصــدّق بحصيرين أخضرين على الأقل للجامع، وبأنجر فتة ولحــم، حتى ولو كان من لحم الرأس الرخيص ــ وذلك مــن بــاب التيسير، وعند ذلك الحد شهق محمد عبد الحفــيظ بركــات شهقة طويلة، ودخل في نوبة بكاء هســتيرية جديــدة، لعــن خلالها بسرّه شيخ الجامع، وجدوده ومن خلفه، وكذلك زوجته راضية أم البنات ، وابنته الكبرى الفاجرة، والتي رآها مرارًا

واقفة تحت شجرة النبق على الجسر في آخر البلد وهي تتدلع مع كاتب بنك التسليف الأصلع وتحاول إغواءه، وكان هـــو، أباها، يغضّ الطرف عن ذلك أملاً في أن توقع الشـــاب فـــي حبائلها ويتزوجها، ثم لعن في سرّه أيضًا أمّه التي ما قالت له كلمة طيبة في وجهه يومًا منذ صغره، بل على العكس طالما بخست كل ما يفعله، وقللت من شأنه ووضعته دائمًا في أسفل سافلي الخلق جميعًا، وقبل ذلك كله، تمنى أن تحل لعنته على خضير البكري، جزاز الغنم، وزين الدفراوي اللذين أنقذاه من الانتحار.

يأت المسكين بعد ذلك ــ ووفقًا لأقواله ــ يتقلب في سريره دون أن يغمض له جفن وكأنه يتقلـــب علـــى فرشـــة جمر، وقد داخله شعور عارم بالذل والقهر من كل الأطراف، وفي صبيحة اليوم التالي، انتظر حتى فتح مكتب التلغـــراف العمومي بالبلد أبوابه، وتوجّه إليه، ولما كان جاهلاً بـــالقراءة والكتابة، ولم يُعرض على مدرسة قط، فقد أملى بنفسه علـــى العامل المختص الجالس في غرفة التلغراف الضيقة رديئـــة التهوية ــ شباك واحد صغير ــ ومتهالكة الجدران الرســـالة التالية:

السيد/ رئيس الجمهورية

السيد/ رئيس الوزراء

أنا محمد عبد الحفيظ بركات، أعمل بشركة الحاصلات الزراعية، وأعول أسرة كبيرة مكونة من سبع بنات، بالإضافة إلى جماعتنا راضية عبد النبي محمود، وأمي الكبيرة منصورة البلاح وراتبي في شركة الحاصلات الزراعية ما زال ١٢٠ جنيهًا قبل الخصم " و ... فجأة، وجد عامل التلغراف أن محمد عبد الحفيظ بركات، بدأ يرفع صوته غاضبًا وهو يضيف الفقرة التالية:

" يا كفرة يا ظلمة، يا مفتريين، يعني يرضيكم أن أسرق؟ أنهب؟ أبيع بناتي في السوق؟ أسرّح الولية أم العيال في البطال؟ أم أمد يدي وأطوف في السكك وأقول لله يا محسنين " ثم ووفقًا لرواية عامل التلغراف، فإن سيلان الشتائم التي يعاقب عليها القانون، انثال من فم محمد عبد الحفيظ بركات، وقد بدا في حالة هياج شديد، حتى أن عامل التلغراف أخذ يهدّئه وقدم له كوبًا من الماء وسيجارة رفضها محمد عبد الحفيظ؛ لأنه لا يدخن، وقد أنكر محمد عبد الحفيظ

أنه قال هذه الشتائم بعد ذلك، لكن عامل التلغراف دوّنها ــ كما قال ــ وكتبها دون زيادة أو نقصان، ثم أوهم محمد عبد الحفيظ بأنه أرسلها إلى الجهات المعنية، لكنه في الحقيقة اتصل برجال أمن الدولة، الذين جاءوا بسرعة، ليأخذوا محمد عبد الحفيظ بركات، والنهاية كانت قضية تعذيب موجودة تفاصيلها في الأوراق التي بين يدي للدراسة والفحص والدفاع عن الرجل وطلب تعويض ملائم له من الحكومة ورجالها خصوصًا وأن أمن الدولة تعامل محمد عبد الحفيظ بركات باعتباره واحدًا من أعضاء الجماعات الإسلامية المحظورة؛ لأنه كان يرتدي وقتها جلابية وشبشبًا وذقنه طويلة لأسباب غير دينية على الإطلاق.

وقد أسفر تعامل أمن الدولة معه لانتزاع اعترافات منه على مدى أسبوع ــ عن كسر مضاعف في يده اليسرى الحيوية بالنسبة له ــ محمّد عبد الحفيظ أعسر منذ الميلاد ــ وشرخ في عظم الترقوة، وقد اتضح بالفحص الطبي بعد ذلك، أن ما ساعد على حدوث هذه الإصابات، هو أن محمد عبد الحفيظ مصاب بهشاشة العظام أصلاً، وأقل ضربة أو خبطة في جسمه تكون آثارها مدمرة.

عمومًا كانت قضية الرجل الغريبة هي ما قادني إلى التعرف على عالم غريب آخر، بعيد عني تمامًا، لم أفكر في تفاصيله يومًا. لقد كانت قضية محمد عبد الحفيظ بركات هي بداية خروجي من القوقعة، فقد اكتشفت خلال بحثي تفاصيل هذه القضية، أنني عشت حياة رخوة، محدودة، بجدران بيتي وجدران الجامعة التي تعلمت فيها وعالمها الضيق المحصور ولم يكن يبتعد كثيرًا عن عالم البيت أو عما يلامس الجلد. بالتأكيد كنت أدرك أن هناك كثيرًا من الفقراء، أو أناسًا أفقر مني ــ على الأقل ــ وليس لديهم ما لديَّ، ولكن محمد عبد الحفيظ بركات قادني إلى المعنى الحقيقي للفقر: الذل والقهر والهوان، وجعلني ألامس ذلك ملامسة قوية، وأستشعر معاناة أولئك الذين يعيشونه ويتمرغون فيه، وربما كانت قضيته تحديدًا هي التي جعلتني أوافق في النهاية على الانتماء إلى واحدة من جمعيات حقوق الإنسان، رغم أن " نهال " صديقتي وزميلتي في العمل بمكتب المحاماة، حاولت قبل ذلك مرارًا إلحاقي بواحدة من هذه الجمعيات التي تنتمي إليها لأن ــ كما تقول ــ " التجاوزات زادت بشكل لا يمكن تخيله في موضوع التعذيب وتعدي أجهزة الأمن على المواطنين

وتجاوز القواعد الدستورية، ثم إننا يا خالدة شغلتنا الدفاع عن حقوق الناس ومصالحهم، ثم أن مصطفى كامل كانت مهنتــه المحاماة، وكذلك محمد فريد، وكل من كان له محاولة حقيقية في عمل وطني كبير لينهض بالبلد ومن فيهــا وخصوصًــا، الناس الغلابة ومعظمهم لا يعرف شــيئًا عــن القــانون أو الدستور وحقوقه المكفولة من خلال نصوصه ".

كنت أبتسم عادة عندما تخطب نهال خطبًا من هــذا النوع، طالما سمعتها تكررها على مسامعي، فأنا أكره الجمل الكبيرة والكلمات الرنانة وقد سمعتها لسنوات طوال من خلال الراديو والتليفزيون، وقرأتها مرارًا في الصــحف، فــالجميع يتحدثون عن الوطن، وعن المواطنين، وكلمات من نــوع " يجب"، " ومن الضروري " هي لوازم مزمنة لما يقولــون، و لكن ماذا يفعلون للوطن؟ أو ماذا يفعلون للناس وللمواطنين؟ فهذا ما لم أعرفه أبدًا، وطالما كنت أردد لنفسي بعد ســماعي أو قراءتي لكلام من هذا النوع: الوطن بحاجة إلى فعل وليس بحاجة لكلام.

انتميت إلى جمعية " نصرة الحق الإنســاني "، فــي النهاية، ليس بفضل خطب نهال ولكن بسبب تعــاطفي مــع

المسكين محمد عبد الحفيظ بركات فقد تعذب الرجل وحصلت له غاية البهدلة بسبب رغبته الإنسانية البسيطة في قزقزة كيس لب بخمسين قرشًا وسدّ جوع أسرة كبيرة لا يكفيها مرتبه الشهري لشراء عيش حاف.

ها أنا أركض حاملة حقيبة يدي في مطار أمستردام، المدينة الهولندية التي أزورها لأول مرة بناء على دعوة من أخي، بعد أن تكفل بدفع ثمن بطاقة السفر، فوجَدَتها جمعية " نصرة الحق الإنساني " فرصة لتمثيلها في مؤتمر عقدته. كنت أسارع الخطى، لاهثة، صاعدة، هابطة داخل ممرات المطار الضخم، حتى وصلت إلى البوابة A33 حيث مكان إقلاع الطائرة المصرية المتجهة إلى القاهرة لأجد كلبًا بوليسيًا ضخمًا في استقبالي عند بوابة القاعة الفسيحة المكتظّة بأسلحة على أكتاف جنود مدججين يحاصرون ممرًا ضيقًا مُحددًا بشريط أسود يمر عبره الداخلون إلى كاونترات موظفي شركة الطيران القائمين بإنهاء إجراءات سفر الركاب. كنت قد لاحظت مشهدًا مماثلاً أثناء مروري داخل المطار وأنا أعبر بعض الأماكن عند قاعات المسافرين على الطائرة اليمنية والطائرة السودانية، والسعودية والجزائرية،

وكل الدول المصنّفة كراعية للإرهاب أو مُصدّرة لــه وفقًــا لوصف الإدارة الأمريكية كما فهمت من الشــابّين الــواقفين أمامي في الطابور انتظارًا لدورهما فــي إنهــاء إجــراءات سفرهما.

وقفت أتأمل موظفي الشــركة والجنــود والكــلاب ليداخلني شعور مفاجئ بأن ما أراه إنما هو جزء مــن فــيلم هوليودي سخيف، فقد بدا المكان أشبه بثكنة عسكرية، أكثــر منه بقاعة مؤدية على طائرة على وشك الإقلاع، وكنت خلال ذلك أحاول التقاط أنفاسي، متابعة بعيني جمهور المــرتحلين غير المبالين بالحالة العسكرية التي هم موضــوعها، بينمــا يندفعون واحدًا إثر آخر داخل الأنبوب المؤدّي إلى الطائرة، سرت وراء الناس بعد إنهــاء إجراءاتــي بشــعور القطيــع مجرجرة أقدامي المتعبة حالمة بلحظة ألقي بجسدي خلالهــا على مقعدي المخصص بالطائرة، (١٦ ب) والمدون علــى بطاقة تعليمات الرحلة وعندما صرت فــي الطــائرة فعــلاً، فوجئت بأن (١٦ ب) المأمول قد تم احتلاله من قبل رجــل عجوز بدين، يجلس إلى جانب امرأة تصغره قليلاً لكنهــا لا تقل عنه بدانة، وما إن رآني أطلب منه إنهاء حالة الاحــتلال

لمعقدي، شاهرة في وجهه بطاقة الجلوس المدون عليها رقـم مقعدي حتى بادرني بابتسامة تليفزيونية لا تخلو من بـراءة الشيخوخة قائلاً بلطف وبطريقة مصرية لينة معهودة:

ــ حضرتك (١٦ ب). طيب ... ممكن أن تعقدي مطرح " طنطك ". هي (١٧ أ) وأنا قلت لروحـي خليهـا قاعدة جنبك يمكن أن تعوز حاجة لو سمحت يعني.

على رغم أنني لا أقبل التنازل عن حقوقي عـادة ــ هكذا علمني أبي ــ مهما كانت بسيطة، واعتبرت أن ما قاله نوعًا من السخافة أو " السلبطة " كما يقال، إلا أنني وبمجرد أن لمحت (١٧ أ)، وكان مقعدًا مجـاورًا للشـباك، حتـى أومأت برأسي موافقة على أن تبقى " طنطي " بجوار رجلها، لأن (١٦ ب) لم يكن مجاورًا للنافذة، وأنا أحب الجلـوس إلى جوار النافذة في المواصلات العامة كالقطار والأتـوبيس والمترو، فما بالك بالطائرة؟

سارعت بإدخال حقيبة يدي الضخمة والتي كنت قـد ابتعتها قبل سفري من مصر داخل الرف العلـوي للطـائرة لأجلس بعد ذلك على (١٧ أ) وأربط الحزام.

بعض الناس يفضّل القراءة في الطائرات، الــبعض الآخر يفضل سماع الموسيقى ومشاهدة الأفــلام، أمــا أنــا فاعتبرت ركوب الطائرة حالة من حالات السجن الاختيــاري الإجباري في آن معًا. حالة أشعر فيها أن الزمــان والمكــان يتوحدان عند نقطة الصفر، ليصبح المرء بعد ذلك وكأنــه لا هنا ولا هناك " وهل السماء مكان؟ ". ثم إن حيّــز الجلــوس المحدود الذي لا يسمح إلا بفرد الساقين قليلاً، يــدفعني إلــى تفضيل النوم في الطائرة والحلم بــأرض، أيــة أرض أقــف عليها وــ يا حبذا لو كانت أرض الوطن ــ لأنهــا ســتكون أفضل من تلك الحالة الهوائية الحتمية، لذلك، ربطت حــزام الأمان، ونظرت في ساعتي فوجدتها الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق ليلاً بتوقيت أمستردام.

ووضعت مقعدي في وضعه المستقيم وفقًا للتعليمات، ثم أسندت رأسي إلى مسنده العالي، مُغمضــة عينــي تأهبًــا لسُبات مأمول وأحلام سعيدة بأنني داخــل مــدينتي الأثيــرة القاهرة.

سرعان ما شدّني فضولي إلى حركة من توقعته جارًا على المقعد المجاور لمقعدي، فتحت عيني لألقي نظرة: شاب

طويل نحيل، ما إن انتهى من إدخال لسان الحزام الحديــدي في عروته حتى ابتسم ابتسامة عريضة ملتفًا إليَّ هامسًا:

ــ هاللو.

ــ هاللو.

رددت تحيته مشفوعة بابتسامة لائقــة، ثــم أســدلت جفنيَّ ستارين على المشهد الطائر الخاطف، وقــد أرجعــت رأسي إلى مكانه الأول على مسند الكرسي، ودون أي تعليق داخلي على الجار السماوي المستقر إلى جانبي تــوًا كانــت الطائرة قد بدأ صخب محركاتها العنيــف يتعــالى اســتعدادًا للإقلاع، بينما إذاعتها الداخلية تصــارع الضــجيج لتصــل بألحان أغنية قديمة لعبد الوهاب إلى مسامعنا، وكنت بدوري أجتهد لأقلع إلى مملكة النوم المشتهاة بأسرع ما يمكــن مــن خلال اشتباك مع عمتي في حوار سريع عــن أحــذيتها ذات الكعوب العالية والمقدمات الضيقة، المدببة، والمســببة لآلام الساقين وتورم المفاصل، وفجأة قطع حوارنا وجه جــاري، الذي طالعته منذ قليل، على طريقة مذيعي بــرامج الإذاعــة والتليفزيون عندما يقطعون البرامج فجأة ليقولوا " هنا القاهرة

"، أو يقاطعون ضيوفهم دون أن يسمحوا لهم بإكمال ما بدأوه من كلام وعرض وجهات نظرهم.

تخيّلت وأنا مغمضة بأنني قد رأيت هذا الوجه من قبل، تلك البشرة الداكنة بلون البنّ المحمّص، والأنف القصير المنفرط على صفحة الوجه قليلاً، ثم ذلك الشعر الكثيف جدًا وقد سال نعومة على الجبهة، ثم تلك الشفتين الرقيقتين المنفرجتين عن أسنان إفريقية قوية بيضاء، رائقة ومتراصة، ولما كنت في البرزخ الواصل بين الصحو والنوم، فقد تخالطت تلك الملامح مع ما عهدته من ملامح سيّد الزبال الذي أخبرني ذات مرة بينما كنت أخرج له كيس الزبالة الأسود، بأنه رئيس فرقة موسيقية لإحياء الأفراح مكونة من إخوته الثلاثة وبعض أقاربه، وأنه في الخدمة لو طلبت منه إحياء أي فرح، ثم سرعان ما قمت بتركيب هذا الوجه بملامحه وقد أيقنت أنها مألوفة إليّ جدًا، على محصّل قطار المرج القديم الذي أزمنت رؤيته لمدة ثلاث سنوات دراسية، كنت خلالها أنتقل بالقطار من محطة عين شمس حتى محطة سراي القبة حيث كانت تقع مدرستي الثانوية، ثم ها هو أبي يظهر فجأة طالبًا مني أن أمسك بواحدة من قططه ليتمكن من

إسقاط بعض من قطرات كلورامينفينكول في عينيهـــا لأنـهـــا عمَّصَت وأرمدت.

يبدو أنني أفقت على صـــوت مضـــيفة الطـــائرة إذ سمعتها تقول:

ــ لحمًا ... أم سمكًا ــ أم فراخًا؟

اعتدلت في جلستي بعد أن أفقت وأنزلت رفّ الطعام المثبت على الكرسي أمامي، وعندما كررت السؤال قلت:

ــ سمكًا

أخذت أتأهب للأكل بعد أن أمدتني المضيفة بوجبتي، بينما بادرني جاري: " بشهية طيبة "، ثم وبينما أمسح يـــدي بمنديل مصر للطيران المُعطر، سألني فجأة:

ــ أنت مصرية؟

ــ نعم ... وأنتَ؟

ابتسم بسعادة، وقال: أنا مكسيكي مصري.

ــ فعلاً؟!

همهمت بالتعجب في التساؤل، وخمّنت: ولم لا؟! في السنوات الأخيرة خرج من مصر آلاف، بل ملايـــين النـــاس

بحثًا عن الرزق ولا عجب إن قابلت شخصًا تزوّج من بــلاد الواق واق وأنجب طفلاً مصريًا واق واقيٍّ.

ابتسمت لفكرتي ووجدت جاري يبتسم بسعادة أكثــر وكأنه وجد شخصًا يقول له كلامًا يرغب في قوله، لأنه راح يتابع بسرعة ودون توقف:

أنا مكسيكي، لكني أعيش وأعمل في ألمانيا، كنت في رحلة عمل إلى أمستردام وأنا ذاهب إلى مصر الآن للسياحة و...

قال كلامًا كثيرًا بعد ذلك لم أفهم معظمه فهو يــتكلم الإنجليزية بنسبة ٣٠% على أفضل تقدير وإنجليزيتي لا تزيد على ٥٠% وهذا معناه أننا نتواصل بحوالي ٨٠%، وإذا مــا حذفنا ١٠% للهجته وسرعته تصبح المحصلة النهائية ٧٠%. قلت لنفسي لا بأس وخلاصة الكلام الكثير الذي فهمته هو أنه مكسيكي ألماني، لكني لم أفهم تمامًا حكاية أسرته المصــرية والتي يرغب بزيارتها، لذلك سألته وأنا أواصل التهام مهلبيّة مصر للطيران المليئة بالنشا والسكر والشحيحة اللبن:

ــ أنا لم أفهم. يعني أهلك في مصر؟. جــاءوا مــن المكسيك ليعيشوا في مصر؟!

ـــ لا. هم مصريون يعيشون في مصر.

ـــ إذن. أنت مصري!

ـــ لا. أنا مكسيكي ولكن أهلي في مصر.

يا إله الكون. ويا لسوء تعليم اللغات الأجنبيـــة فـــي مدارس مصر الحكومية. قلت لنفسي وتابعت له:

ـــ كيف تكون مكسيكيًا وأهلك في مصـــر؟: وكـــدت أضيف له: " فيما لا يزيد على جملتـــين وبلهجـــة واضـــحة مفهومة ".

ـــ ويل Well أريد أن أوضح لـــك، أن جـــد أمـــي مصري، وقد جاء إلى المكسيك وأحبَّ جدتي، جـــاء وقـــت الحرب وأنا لا أعرف عنه شيئًا، وأريد أن أرى أسرة جـــدي وأعرفهم.

شكل جاري الطائر ينبئ بأن عمره لا يتجاوز نهايـــة العقد الرابع والحروب التي أعرفهـــا هـــي حـــرب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ وقبلها جميعًا حرب فلســطين ١٩٤٨ مـــع " إسرائيل "، فهل يمكن أن يكون جده قد حارب في أي منهـــا؟ مستحيل منطقيًا. غبية ـــ قلت لنفسي ـــ ولكن هناك الحـــرب الكونية الأولى ١٩١٤، والثانية ١٩٣٩ ... إذن سأسأل:

ـــ لا. لا الحرب القديمة. ردّ على سؤالي.

ابتسمت مرة أخرى في أعماقي وقلت لنفسي: فـــيلم هندي طويل بلغة إنجليزية ركيكة ويحتاج إلى ترجمة فورية، فأنا لا أعرف ماذا يقصد بالحرب القديمة: هل هـــي حـــرب البسوس؟ حرب داحس والغبراء؟! كدت أضحك فعلاً، فالأخ المكسيكي فهلوي وينوي بيع المياه في حـــارة الســـقايين، إن وراء ما يقوله حكاية أخرى، حكاية أكبر ربما تكشـــف عـــن تفاصيلها ساعات رحلتنا الهوائية التي ما يزال أمامها ما يزيد على الثلاث ساعات، ولكن فلنبدأ بالتعارف.

ـــ رودلفو فرديناندو

ـــ خالدة مصطفى إسماعيل

جاءت المضيفة مرة أخرى ... قصـــيرة ســـمراء، متأففة لسبب غير مفهوم كأنها تؤدي عملها جبرًا واضطرارًا فطلبت قهوة وطلب رودلفو شايًا، وبدا الأمر لـــي ـــ وعلـــى رغم كل شيء ـــ طريفًا ومسليًا ومطيّرًا للنوم من عيني وهو يعرفني بنفسه، مهندس ميكانيكي يعمل في شـــركة ســـايمنز الألمانية العملاقة، التحق لفترة بثورة الهنـــود فـــي جنـــوب المكسيك، لكنه في النهاية جاء ليعيش في ألمانيا (طبعًا لـــم

أسمع يومًا عن ثورة الهنود التي قال أنها قامت سنة ١٩٩٣ في جنوب شرق المكسيك، وهل نسمع أو نقرأ مثل هذه الأخبار في إعلامنا).

ثم إن رودلفو خرج ـ كما قال ـ بعدها من البلاد نهائيًا ويعيش في ألمانيا.

حكايته ملتبسة ومتشابكة، لكنها لم تمنعني من تقديم حكايتي البسيطة بدوري: محامية يتيمة الأبوين في أول حياتي العملية، وكنت في هولندا لزيارة أخي غير الشقيق وحضور المؤتمر عن حقوق الإنسان. (ابتسم رودلفو لسبب، دون أن يعلق، عندما ذكرت حقوق الإنسان). ثم إنه جرني إلى ثورة هنود المكسيك التي هددت الحكومة المركزية وقتها وشارك فيها هو ضمن عدد من المثقفين الذين رفضوا كل الأشكال السياسية الموجودة هناك: اليمين واليسار و...

قاطعته بدوري:

ـ ولكنك مكسيكي ولست هنديًا؟

ـ لا. أنا هندي مكسيكي. الهنود هم الأصل، جدتي كانت نصف هندية و ...

نصف هندية؟. ساءلت نفسي وقلت:

ـــ لكنك تقول أن جدك مصري؟

ـــ آه. هي تزوجت بجدي المصري عندما جاء وقت الحرب القديمة.

لم أقاوم فقلت مازحة:

ـــ نصف هندية. طيب والنصف الآخر، كوكتيل؟

ـــ جدتي. أبوها نرويجي وأمها هندية.

ـــ يعني حضرتك نرويجي. هندي. مصري.

ـــ وألماني. أمي حملت بي من رجل ألماني.

ـــ يعني حضرتك أمم متحدة تسير على ساقين. (ثم إنني أرجأت الاستفسار عن "حملت بي من رجل ألماني" إلى حين.) لم يضحك لمزحتي كما توقعت، لكنه ردّ بجدية شديدة بعد صمت:

ـــ تأملي هذا وفكّري في العالم الذي نعيشه وكم هو غريب، فجدّي الكبير نهّاب، جاء من النرويج للمشاركة في عملية نهب ثروات الهنود الحمر وإبادتهم في أمريكا اللاتينية، وجدتي لم تكن إلا عبدة لديه و أنجبت أمي منه ولم يتزوجها أو يمنح اسمه لأبنائها جريًا على العادة العنصرية في ذلك الزمان الماضي، أما جدي المصري فقد جاء ليشارك

في الحرب الأهلية عندما بلغت عمليات النهب والاقتسام الاستعماري ذروتها بين الدول الأوروبية المختلفة والمستوطنين الأمريكان الذين راحوا يقضمون قطعة تلو أخرى من أراضي الهنود الحمر الذين أبادوهم في أمريكا الشمالية والوسطى، وها أنا الآن ــ وكما ترين ــ نتاج كل هذا.

نظرت إليه متعجبة وممنونة نوعًا لدرس التاريخ الذي تلقيته لتوي ... لم أعرف بماذا أجيب على ما قاله، فأنا في الحقيقة لا أعرف شيئًا عن وقائع التاريخ الذي سرده، وأعترف بأني لم أتعلم شيئًا في المدرسة ولا في الجامعة يتعلق بتاريخ الهنود الحمر، وجلّ معلوماتي عن سكان أمريكا الأوائل مستقاة من أفلام الغرب الأمريكية المثيرة، وكل ما تبقّى في مخيلتي من صور لهؤلاء الهنود، إنما هي لأناس ذوي بشرة نحاسية داكنة وشعور حريرية مسترسلة تغطيها تيجان من ريش ملون لطيور لا أعرف أنواعها، شعرت بالحرج قليلاً، وبعجز مكثّف عن المشاركة بالحوار في أمور لا أعرف عنها إلا لمامًا، لكن فضولي لمعرفة المزيد عن حكاية جده المصري دفعني لسؤاله مرة أخرى:

ـ ولكن الغريب أن جدك المصري ذهب ليحارب في المكسيك؟! ثم أردفت ضاحكة:

ـ مصر بعيدة جدًا عن المكسيك، ولا أعرف أنه كان بين الدولتين أي نوع من الصراع، مصر في أفريقيا والمكسيك في أمريكا الوسطى وبينهما بلاد كثيرة ومحيط واسع و...

قاطعتني مضيفة مصر للطيران، إذ جاءت لتأخذ ما تبقى من مائدتها الصغيرة غير العامرة، ولأعيد الطاولة/ الرف إلى مكانها الأول، مثبته إياها على ظهر مقعد الجالس أمامي، وبعد أن فعل رودلفو ذلك أيضًا قال:

ـ جدي كان من جنوب مصر، واسمه أوثمانو وهو بيشوب. "أثمانو وهو بيشوب". كررت في سرّي مرة أو اثنتين وأنا أفكر لبرهة، وبعدها رحت أقاوم ضحكة باتت على وشك الخروج مني بينما أقول لنفسي: الأسقف عثمان، هذا ما أسمعه لأول مرة في حياتي.

ـ تقصد الشيخ عثمان، في الإسلام لا يوجد بيشوب، أسقف يعني ولا توجد رُتب دينية كما في الكنيسة المسيحية، هناك الشيخ فقط .. الشيخ عثمان.

وكدت أقول له أن الإسلام لا يعرف الكهنوت وأن أي إنسان يستطيع أن يكون شيخًا لو قرأ القرآن الكريم وتفقه بالدين لكن رودلفو قاطعني وهو يردد:

ـ أوه ... شيخ ... شيخ.

قلت:

ـ شيخ ... شيخ. خ. Kh وشددت على حرف الخاء.

ـ شيخ. شيخ أوثمانو وهو جاء وقت الحرب ولكن بقى في فيراكروز بعد أن عرف جدتي وهي كانت جميلة وأحبته جدًا وأنا الآن أحاول العثور على عائلة أوثمانو وأعرفهم ... أليس جميلاً؟!

نظرت إليه متشككة قليلاً دون أن أرد على سؤاله، فأنالا أعرف أهذا الذي قاله جميل أم غير جميل، فعشرات الأسئة والأفكار انفجرت برأسي، فما يقوله هذا الجالس إلى جواري يتجاوز المنطق ويحتاج إلى كم من الإجابات على أسئلة رأسي لمنطقته ومواصلة الكلام، تساءلت بداخلي:

هل هذه بداية فيلم أمريكي مثير؟ بدا لي الأخ رودلفو الجالس إلى جواري غريب الأطوار قليلاً خصوصًا وأنني

لاحظت أنه يضع بأصابعه الثلاثة خواتم من الفضة، واحد منها على هيئة خفاش عيناه من الزمرد الحقيقي.

قلت بعد تفكير:

ـ وكيف ستعثر عليهم ... هل معك ما يدل عليهم؟ هل تعرف كم عدد سكان مصر الآن؟ إنهم أكثر من سبعين مليون نسمة، وفي الحقيقة فإن الرقم الصحيح ربما يكون أكثر من هذا بكثير، لأن الناس لا تثق في الحكومة أبدًا، وتخشى أية عملية للتعداد السكاني تقوم بها الدولة، والفقراء يظنون أن الحكومة تعدهم لأنها ناوية لهم على الشر، أو لأنها تحسدهم على ما أعطاهم الله من عيال على أفضل تقدير، لذلك فهم يمدونها بأرقام خاطئة ومضللة وغير دقيقة، ومعنى ذلك يا رودلفو أنك تنوي البحث عن إبرة في كومة رمل؛ يعني مستحيل أن تجد عائلة عثمان جدك دون أن يكون لديك مستندات أو وثائق أو أي دليل يقودك إلى هذه العائلة.

ـ نعم. نعم. عندي أشياء.

قال وهو يهب واقفًا مما لفت نظر الطفل الجالس إلى جوار أمه على الكراسي الموازية لمقاعدنا في الجانب الآخر الذي يفصله عنا ممر الطائرة، ويبدو أنه ظن أن رودلفو

سيشرع في تقديم استعراض بهلواني سريع، لأنه راح يضحك ويصيح بكلمات غير مفهومة وهو يشير إلى رودلفو بإصبعه، بينما كان الأخير يفتح باب رفّ الطائرة ويأتي من حقيبته الموضوعة بداخله، بمظروف ضخم، فتحه عندما جاء ليجلس إلى جواري مرة أخرى وقال:

ـ هذه هي أوراق جد أمي. كانت أكثر من هذا بكثير، لكن أمي التي احتفظت بها كواحدة من تذكارات جدتها قالت لي أن أمها أحرقت العديد من هذه الأوراق في مناسبات مختلفة، فكلما كان يلمّ بها مرض، أو تحدث لهم أحداث غير سارّة، كانت تحرق بعضًا منها ضمن ما تقوم به من طقوس هندية قديمة لاعتقادها بأنها أوراق سحرية، لكن عندما ماتت جدة أمي، ظلت هذه الأوراق بمنزلها بفيراكروز، وقد احتفظت أمي بعد ذلك بهذه الأوراق التي أخذتها من أمها حتى بعد أن انتقلت للعيش مع أبي الألماني الأسباني، لأن أم أبي أسبانية الأصل، ثم انتقلت هذه الأوراق مع أمي إلى نيومكسيكو حيث ولدت وعشت معظم سنوات عمري الأولى، أظن أنها مكتوبة بلغة مصرية عربية أو فارسية ... لا أعرف ... ثم ابتسم وأردف:

ـ أو أنها أوراق سحرية، كما كانت تظن جدة أمي... من يدري ربما كانت كذلك!

لم أرد، وبدأت أفتح المظروف الذي ناولني إياه ... كانت هناك رزمة من الأوراق الصفراء، وضعت بين دفتي جلدتين بشريط من المخمل الأحمر، وعندما بدأت أتلمس الصفحات المدونة بقلم كوبي أزرق، والتي تلاعبت بملامح حروفها السنون الطويلة، فبهتتها وأوهنتها، خيل لي أن هناك رائحة غريبة تفوح منها ... رائحة تخالطت فيها روائح البحار، بملح دموع قديمة سقطت عليها هنا وهناك، وأوراق عشب غابات بعيدة جعلتني أسرح بفكري بعيدًا، مفكرة: ماذا يا ترى سيكون وراء هذه الأوراق ... هل يمكن أن يكون فيها ما يقود رودلفو إلى حقيقة وأصل جدّه المصري المزعوم؟، لا أعرف، ثم إني أفقت من استغراقي في التفكير على صوت مضيفة الطائرة وهي تطلب من الركاب ربط الأحزمة وإعادة وضع المقاعد في وضعها الأصلي استعدادًا للهبوط في مطار القاهرة.

هبطت الطائرة في مطار القاهرة، فغادرتها وأنا أودّع رودلفو وأتمنى له إقامة طيبة، والتوفيق في العثور على ما

تبقى من عائلة جده المصرية، وقبل أن أتركه زودته ببعض النصائح المتعلقة بالتعامل مع سائقي التاكسي، وكذلك بأفضل المطاعم التي يمكن أن يأكل بها أكــلات مصـــرية تقليديــة (اكتشفت فيما بعد أنه يحمل معه كتابًا مليئًا بكل التفاصـــيل عن المطاعم ومحلات الشراء التي لا أعرفها أنـــا وكـــذلك أسعار السلع التقليدية).

ثم إني أعطيته عنواني ورقم تليفوني للاتصال بي إذا ما احتاج إلى شيء ما، وذلك من باب الذوق والكياسة، وكنت بالطبع أنطلق من قاعدة مصرية قديمة ترى أن كل غريـــب قادم إلى البلد إنما هو غلبان مسكين، وحالة تراجيدية تستحق الاهتمام والرعاية والعطف، قلت له مازحة:

ــ عمومًا، أنت مصري، تصرّف وكأنك في بلدك.

واقترحت عليه الاتصال بهيئة الاستعلامات في وسط البلد وبينت له مكانها، قائلة له أنه ربما يجد فيها من يساعده على الوصول إلى عائلة جده المصرية، وبصـــراحة كنـــت خلال ذلك أتشكك في جدية رودلفو حقًا فيم يتعلق بالوصـــول إلى جدّه وإلا لماذا انتظر كل هذه السنوات الطويلة حتى فكر في البحث عن أصوله المصرية، ولا أدري لماذا تذكرت وأنا

أفكر بذلك في حكاية سيدة مصرية قريبة لنهال صديقتي، التقيت بها في إحدى المرات ببيت نهال، كان أبوها مصريًا وأمها صربية، وقالت لي أن هناك مجموعة من الغجر اليوغسلاف يطالبون بالحصول على الجنسية المصرية، وقد ذهبوا إلى السفارة المصرية ببلغراد وقدموا طلبًا بذلك، ولكن طلبهم قوبل بالرفض ... هل يمكن أن يكون رودلفو راغبًا في الحصول على الجنسية المصرية أيضًا من خلال ادعاء أصله المصري أيضًا؟ ربما.

ركبت تاكسيًا ودخلت قاهرتي المجنونة التي افترسها الزحام والضجيج والتراب والإهمال والقبح المعماري والفساد والفوضى، ناهيك عن تفاصيل الحياة اليومية الغبية المعقدة الملتهمة للعمر والوقت والجهد والأعصاب، كانت في حوالي الواحدة صباحًا ترقد هادئة مستكينة كطفل مشاغب شقي هدّه التعب بعد لعب كثير فنام، ورغم كل معاناتي منها مثل أية مواطنة أو مواطن ولد وعاش فيها وكابد متناقضات حياتها اليومية، إلا أنني شعرت وبمجرد أن خرجت من باب المطار، وكأن روحي الضائعة قد ردت إليّ مرة أخرى، وأن تنفسي بات طبيعيًا، وبكل ذلك الشمول النفسي من السكنية

والاطمئنان، فأي إدمان أدمنه لسحرها الغامض وأمانها المستقر وحياتها الصاخبة الوادعة في آن معًا، وكل تلك العذوبة الفائضة في ناسها، رغم الفقر وقسوة الحياة والأيام التي تكرّ ولا تجود بما هو أفضل أبدًا.

على مدى ما يقارب الأسبوع بعد ذلك، كنت قد نسيت رودلفو وأوراقه وحكاياته عن المكسيك وجدوده وثورة الهنود، وانشغلت بتفاهات عمتي اليومية ودوامات القضايا والمحاكم ومشاكل حقوق الإنسان التي تبدو لي دومًا وكأنها بلا أول ولا آخر، وتدور في حلقات مفرغة، كانت عمتي لا تكف عن الثرثرة كلما التقيت بها في البيت وتصر على ملء فراغات تظنها موجودة في حياتي، وخرق الاتفاقات المعقودة بيننا، فقد أعلنت وبعد مرور يوم واحد فقط من وصولي للبيت عن عرض مفاجأة متصورة أنه يتوجب عليّ إثر سماعه الشهيق انبهارًا، والسجود الفوري تحت قدميها امتنانًا! ثلاثة عرسان دفعة واحدة، لابد أن أختار واحدًا منهم، وبسرعة ... الأول ابن لسيدة التقت بها وتعرفت عليها في محل الكوافير أثناء تغيير لون شعرها من الأحمر النحاسي إلى الأصفر الكهرماني، والثاني قريب لنا، سمعت عنه مرارًا

ولم أره مرة واحدة طيلة حياتي، لأنه هاجر إلى أستراليا منذ سنوات طويلة، لكنه عاد مصرًّا على الزواج من واحدة مصرية " تكون من ثوبه ويعرف أصلها وفصلها "، كما قالت وعلقت أنا: يا سلام!!. والثالث وكيل نيابة أخ لجارة لنا في العمارة " ويبقى زيتكم في دقيقكم وكله شغل نيابة ومحاكم".

إجابتي الثلاثية كانت قاطعة: لا. لا. لا. وبطَّلي يا عمتي الكلام الفارغ ولو سمعت حكايات من هذا النوع يا عمتي مرة ثانية والله العظيم أسيب لك البيت وأمشي.

في نهاية الأسبوع، وبعد يوم شاق من العمل والجري في المحاكم، عدت إلى البيت، كنت مرهقة جدًا بسبب الحر ورطوبة الجو الفظيعة، وفي حالة من الغيظ الشديد لأن ماسورة الصرف الرئيسة في ميدان العباسية انفجرت فجأة وأغرقت الشوارع مما أدى إلى تعطل حركة المرور وانحباسي داخل الأتوبيس في شارع رمسيس ما يزيد على الساعة إلا ربع شرعت في خلع ملابسي تأهبًا لدخول الحمام وعمل دُش بارد، حتى أسترخي قليلاً وأتناول الغداء مع عمتي، وبينما كنت أشرع بفك أزرار بلوزتي الكتان البيضاء التي أحالها غبار يوم عمل واحد في المدينة إلى اللون

الرمادي، رنّ جرس التليفون مرارًا، فزعقت عمتي بينما كانت تحمل بيديها طبقي كشك صعيدي بالتقلية وتسير من المطبخ باتجاه غرفة الطعام.

ـ اللهَ ردي من عندك يا خالدة، ارفعي السماعة جوّه. يعني التليفون نازل رن وأنت ولا كأنك هنا!؟

ـ طيب. طيب، زعقت لها بدوري من داخل الحمام وتوجهت إلى غرفتي لأرد بينما يجيئني الصوت:

ـ هل يمكن أن أكلم مس خالدة؟

ـ رودلفو ... أنا خالدة.

عرفت صوته للوهلة الأولى، بنبراته الخشنة القصيرة والسريعة.

ـ أوه ... كيف حالك، هل كل شيء جيد معك؟

ـ نعم. نعم ... كل شيء تمام.

صمت قليلاً بعد أن قلت، وقال:

ـ سأسافر اليوم بعد منتصف الليل، هل يمكن أن أراك قبل سفري في المساء لبعض الوقت.

ـ اليوم؟!

تساءلت وأنا أكاد أن أنفجر من الغيظ، فأنا قد وصلت البيت لتوي لألوذ به من العمل منذ الصباح في هذه المدينــة المجنونة والمتعبة إلى درجة لا يمكن تصورها وأتوق لأكــل لقمة وشرب كوب من الشاي واقتناص ساعة قيلولة، ثم هــل يظن هذا الخواجة أنني واحدة صــايعة، بــدون شــغلة ولا مشغلة، أجلس إلى جانب التليفون انتظارًا لمكالمته؟ لماذا لــم يكلمني بالأمس مثلاً لأرتب وقتي خصوصًا وأن الساعة قــد تجاوزت الرابعة بعد الظهر، ترددت قلــيلاً، فأنــا أريــد أن أرفض بأسلوب مهذب وأنهي المكالمة بســرعة ... بقيــت صامتة قليلاً لا أقول شيئًا، فقال واستشرت نبــرات حــرج وخجل بصوته:

ــ أنا آسف، كان يجب أن أحادثك قبل ذلــك بوقــت مناسب، لكني لا أعرف كيف يمر الوقت بسرعة هكذا فــي القاهرة، ولم يكن من المناسب أن أكلمك بعد الساعة العاشرة مساء عند عودتي إلى الفندق، لكن أرجوك سيكون جميلاً أن تأتي، لن آخذ من وقتك الكثير.

كان ثمة فضول يعتريني يتعلق بهذه المقابلة، ورغبة خفية لمعرفة هذا الرجل، ربما كانــت دوافعــي إلــى ذلــك

شخصية (قد أعثر فيه على ما لا أجده عند غيره. أبي وقــد تجسد)، وربما كان خيالي الجانح هو الدافع لذلك الفضــول وتلك الرغبة، وربما الحس البوليسي المكتسب مــن طبيعــة عملي كمحامية، فربما أتوصل إلى قضية غير عادية تكــون قصة رودلفو خيوطها الأولى. المشكلة ليست في لقائه، ولكن الصعوبة تكمن في توقيت لقائه، لو كان قد تلفن لي بالأمس، لكنت تهيأت بما يكفي ورتبت أموري وبقيت بوسط البلد بدلاً من الرجوع إلى البيت والعودة إلى وسط البلد مــرة أخــرى والمرمطة في المواصلات، زفرت رغمًــا عنــي وحســبت الوقت، ساعة غداء، وساعة نوم، قلت:

ـــ طيب ... أين ألتقي بك؟

ـــ أنا في فندق فلامنكو بالزمالك، ما رأيك أن تــأتي إليه ونقرر بعد ذلك إلى أين نذهب.

فكرت قليلاً: الذهاب إلــى الفنــدق فكــرة ســخيفة، وللحظات اختفت من أرشيفي أسماء كل الأماكن العامة التي يمكن أن ألتقي به فيها، وكنت أفكر خلال ذلك فــي التقائــه بوسط البلد، وكان هذا معناه أن ألخص وســط البلــد فــي " جروبي " ... قلت:

ـ لا. نلتقي في وسط البلد أفضل، هناك مقهى اسمه " جروبي " معروف جدًا، هو في ميدان طلعت حرب، كل سائقي التاكسي يعرفونه، ما رأيك أن تكون هناك في الخامسة والنصف.

ـ ممتاز. طالا هرب.

ـ طلعت حرب. ميدان طلعت حرب.

أكدت له مرة أخرى وأنهيت المكالمة بعد ذلك استجابة لضغوط عمتي " بقى لي ربع ساعة محضّرة السُفرة وقاعدة متصبّرة وأنت نازلة دش في التليفون، خلّصي وتعالي، و إلا نفسي تتسدّ من الزهَق ".

مكانان لهما ذكريات خاصة بداخلي جروبي وميدان طلعت حرب، أو سليمان باشا كما كان يسميه أبي، ومعظم الناس حتى الآن، ومحل الشاي الهندي، وهو ما اختفى من خارطة المدينة، مثل عشرات الأماكن والأبنية والمحلات، التي ذهبت دون عودة مع الريح، ريح المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية العاصفة المجتاحة للبلد منذ عدة عقود وقلبته رأسًا على عقب.

جروبي سليمان صمد وظل في مكانـــه، وإن طالـــه بعض من القبح وكثير من أمراض الشيخوخة المهيمنة علـــى ملامح ومعالم المدينة، ولكن ذلك لم يحـــل دون أن أتـــذكره دومًا بالخير، ففيه طالما جلست مع أبـــي منـــذ أن وعيـــت بطفولتي الأولى، كان فخمًا، وأنيقًا جدًا مثلما كان زبائنه فـــي الماضي، أتذكر جرسوناته بتهذيبهم وملابسهم بالغة الأناقـــة والنظافة، والكاستا اللذيذة وأنا أصر على طلبها كـــل مـــرة أذهب فيها إليه، وأبي يحاول إقناعي بتغييرها "طيب اطلبي حاجة تانية، جربي الترايفل أو ســـلطة الفواكـــة أو الكـــريم كراميل "، لكن كانت محاولاته تذهب سُدى، فكنت مخلصـــة دومًا للكاستا بالمارون جلاسيه، أما الشاي الهندي فهو مرتبط عندي بذكرى لا أنساها حيث شعرت لأول مرة في حيـــاتي بأنني أغار من امرأة أخرى. كنت في حـــوالي التاســـعة أو العاشرة وذهبت إلى ذلك المحل مع أبي، وبصـــحبته ســـيدة كانت جميلة وأنيقة جدًا على ما أذكر، كانت ترتدي فســـتانًا أسود من الحرير يكشف عن ذراعيها وجيدها وتضـــع فـــي شعرها المعقوص أمشاطًا عاجية مطعمة بفصـــوص براقـــة. بدت لي فاتنة جدًا برقبتها الطويلة المحاطة بعقد دورين مـــن

اللؤلؤ ــ هكذا أتذكر ــ وتطلي شفتيها بــأحمر شــفاه فــاقع اللون، فجأة انتبهت بينما كنت أمازح قطــة جــاءت تحــت مقعدي للتسول طعامًا وحنانًا، فوجدت أبي يتمعن بوجههــا طويلاً ثم ينحني ليلثم يدها بشفتيه، عندئذ قمت من مطرحـــي ورحت أطوق عنقه بيدي وأقبله على نحو مبالغ فيــه جعلــه يضحك، لكني كنت غاضبة وحانقة عليه، وعلى تلك المــرأة التي لم أنسها أبدًا، وقد داخلني شعور عاصف بأنه خــدعني، فأنا لست محبوبته الوحيدة الأثيرة التي يغمض عينيــه كــل مساء على صورتها وينام، كما كان يقول لي دومًا.

رحت أتذكر وأفكر بينما كنت جالسة أراقب عشــاق اليوم من الشباب، شبان بعضهم بــذقون واضــحة مغطــاة بالشعر وشابات محجبات على الأغلب ... تســاءلت: تــرى ماذا كان أبي سيقول عن رودلفو لو ظل عائشًا حتى الآن ولم يمت؟، وكيف سيكون رأيه في قصته الغريبة التي لا أعرف هل أصدقها أم أكذبها؟. ابتسمت وأنا أتخيل تارة أنه ســيتهكم ويضحك وهو يقول: ولماذا لا تعرفيه على المخرج السينمائي حسن الإمام؟. إن قصته ملائمة جــدًا لنــوع الأفــلام التــي يخرجها عادة، وربما لو رآه شخصيًا، لفكر في إسناد البطولة

المطلقة له، كان أبي سيسخر من حكاية رودلفو وسيجعلها موضوعًا للتندر بينه وبين عمتي بلا شك، مما يدفعني للغيظ والغضب خصوصًا إذا ما انتهزت عمتي الفرصة وراحت تناقش موضوع ضرورة زواجي بأسرع ما يكون. كدت أغتاظ وأنا جالسة فعلاً، وكنت خائفة وحائرة، فأنا لا أعرف على وجه التحديد، هل أصدق قصة رودلفو هذه أم أكذبها؟، فالقصة بدت لي ذات بعد أسطوري لا يصدق، شاب مكسيكي يعيش في ألمانيا جاء إلى مصر بحثًا عن أصول جده المفقودة منذ عشرات السنين، وكل ما لديه من الأوراق الصفراء القديمة، لا ... يجب أن أتحفظ عند اتخاذ أي قرار مع الأخ رودلفو يتعلق بهذه القصة، قلت لنفسي وأردفت — كما يجب أن أتوقف وأفهم منه بعض تفاصيلها مثلما أفعل عادة عندما أفحص ماأشتغل عليه من قضايا. بدأت أشحذ أسلحتي الدفاعية وأنا أفكر، لكن رودلفو قطع تساؤلاتي الحائرة وأوقف توجساتي المتنامية لمّا رأيته يتقدم من باب المحل إلى الداخل بخطوات متلكئة وهو يدور بنظراته في المحل باحثًا عن مكاني، بدا وجهه لي خلال ذلك وكأنه من الوجوه التي يصعب تصنيفها جغرافيًا، فالقارات الأرضية الست تشاركت

جميعها في رسم خريطة ملامحـــه، شـــعر هنـــدي متـــدفق النعومة، وعينان يمكن أن تطلا عليك من أية مدينة رابضـــة عند مياه المتوسط، ثم تلك الوجنة المنبسطة العريضة لسكان أستراليا الأصليين، وفوق ذلك كله، فالأخ رودلفو من الممكن أن يكون " شلبي " بواب عمارتنا القادم من صـــعيد مصـــر الجواني أو أي شاب شبرجي يمكن مصادفته في واحدة مـــن محطات مترو الأنفاق من أول المرج وحتى حلوان، فـــالأداء العام لملامحه وحركاته التلقائيـــة تمنحـــه حـــق المواطنـــة المصرية بامتياز، عمومًا، أشرت له من مكاني فجأة وجلـــس بعد أن حياني ودعوته إلى شرب ليمون مثلج كالذي أشـــربه وكنت قد طلبته بمجرد وصولي، ورحت أشرح له بطريقـــة دعائية سياحية مزايا الليمون البنزهير المصـــري الممتـــاز، والمتميز بصغر حجمه وكثرة عصيره ولذة طعمه خصوصًا لو أضفت إليه في الخلاط ملعقة لبن وقلـــيلاً مـــن الفانيليـــا والنعناع الناشف المطحون، " وأحلى ليمونادة تشـــربها فـــي الدنيا من الليمون البنزهير وأرق كولونيا في العالم تصنع من زهوره، وتقدر تشتري وأنت مسافر بخمسة جنيهات ليمونًـــا تحطه على الشوربة.

راح رودلفو يمتص مصّات متتابعة طويلة من كأسه التي أتى بها النادل وقد تندى سطحها الخارجي بضباب ثلجي خفيف، وذلك بالمصاصة البلاستيكية ذات الطرف المعقوف، ثم قال — وربما كنتيجة للدعاية الهائلة التي قمت بها لليمون البنزهير:

— لذيذ فعلاً ... ممكن آخذ واحدة ثانية؟

ناديت على الجرسون، وطلبت له كأسًا ثانية، كما طلبت منه أن يأتي بليمونة ليراها رودلفو، فلما عاد بها، تشممها رودلفو ودعكها بيده ثم قال:

— آه. أظن أن عندنا مثله.

— فعلاً؟! تساءلت بدهشة وأضفت:

— ربما كان هندي الأصل.

ابتسم وأضاف:

— آه. ربما أحضرها جدي من مصر إلى فيراكروز ذات يوم!

ابتسمت بدوري، وإن كانت قد تأكدت لديّ درجة من الهوس في كلامه عن جده وأصله المصري، وهو مما

استشعرته خلال لقائي به في الطائرة، لكنه لم يتركني طويلاً لانطباعاتي الداخلية، إذ واصل كلامه:

ــ ذهبت إلى الهرم بالأمس وهو خطير جدًا، وكذلك رحت الاستعلامات وقابلت بعض الناس فيها وقالوا لي أنه من الصعب جدًا أن أجد عائلة جدي، لأنه لا توجد معي مستندات واضحة ومفيدة تدل على اسمه الكامل أو اسم عائلته، وواحد منهم قال لي أن المسألة تحتاج إلى أن أظل في مصر عدة شهور وربما أكثر إذا كنت أريد الخروج بنتيجة فعلاً، وأنا قلت لهم أن هذا مستحيل لأن لديَّ عملاً في ألمانيا وفي النهاية اقترحوا أن أترك الأوراق التي معي كلها ليفحصوها ويدروسها، ثم يأتيني الرد منهم بالبريد بعد أن أسافر، والحقيقة أنني رفضت وقلت إن هذا مستحيل، فأنا أخشى على هذه الأوراق جدًا، وقد سألوني أسئلة كثيرة عن سبب زيارتي لمصر، وهل أنوي الإقامة فيها طويلاً، وكذلك سألوني عن عملي في ألمانيا ولماذا أعيش فيها؟ وأنا تعجبت لكل هذه الأسئلة، وقلت لهم أنني مهندس، وتعجبت كذلك لأنهم سألوني عن الناس الذين أعرفهم في مصر، فضحكت وقلت لهم أنتم وحسين بارمان الفندق لأنه شخص لطيف جدًا

وأتداول معه الكلام كلما رحت لأشرب البيرة في البار وهو نصحني نصائح مفيدة ودلني على محل أشتري منه ملابس من القطن المصري وكان ممتازًا جدًا ثم قلت لهم عنك أيضًا، وأخبرتهم أنني جئت للسياحة وللبحث عن عائلة جدي.

سألته: ـ لكنك لا تعرف شيئًا عني، ماذا قلت لهم؟!

سكت قليلاً وهو ينظر إليَّ طويلاً، ثم أبدى إعجابه بعقد الكهرمان في رقبتي قبل أن يضيف:

ـ بصراحة، كدت أن أعطيهم المظروف، لكنني فجأة، خفت على ما بداخله من أوراق، لا أعرف في الحقيقة لماذا آثرت ألا أعطيهم الأوراق في النهاية، وبعد أن خرجت من الاستعلامات خطر ببالي أن أترك الأوراق معك لتقرئيها، فربما تجدين فيها شيئًا يدلني على عائلة جدي، وفي جميع الأحوال، أستطيع أن أسترجعها منك فيما بعد، فأنا أشعر أنك إنسانة جيدة وصادقة يمكن أن تكوني صديقة لي.

دهشت وشعرت وكأنني عسكري مرور في ميدان قاهري ساعة ذروة الظهيرة، مسحت جبيني بيدي، وكأن حبيبات عرق تجمعت عليه، ففكرة إعطائي الأوراق أربكتني ناهيك عن " ويمكن أن تكوني صديقة لي "، وسرعان ما

تدفقت في رأسي عشرات الأسئلة مـــن ســـرداب المخـــاوف المعتم بداخلي، أسئلة روايات بوليسية قديمة وقد تداخلت مع مشاهد أفلام مصرية أبيض وأسود، ثم هناك أسئلة النصـــب والاحتيال وصفحات الحوادث بالصـــحف القوميـــة وغيـــر القومية.

همت أن أنطق رافضة هذا الشرف، وتلـــك الثقـــة اللذين لم أتوقعهما وأنا أتذكر بعضًا من تراثنا " ابعـــد عـــن الشر وغنِّ له"، لكن الحقيقة أن فضولاً عارمًا ومثيرًا، وأمرًا غامضًا، كانا يعتملان بداخلي، ويدفعاني لاستشعار أنفاســـي بينما أقول:

ـــ طيّب. لماذا لا تصورها فوتوكوبي وتترك معـــي صورة منها.

ـــ لا. حاولت تصويرها، لكن التصوير فشل، قـــالوا أنها قديمة جدًا لا تصلح للتصوير.

ثم ابتسم وأضاف:

ـــ يبدو أنها ستظل أصلاً دائمًا، أصلاً حقيقيًا لا يمكن أن يكون له صورة.

اقترحت عليه أن أصحبه في جولة سـريعة لـبعض الأماكن التي أعرفها بالقاهرة إذ كانت أمامه عدة ساعات قبل أن يذهب إلى المطار لتعود الطائرة به إلى ألمانيـا، وأثنـاء خروجنا إلى الشارع بدا لي لطيفًا وأحسست أن ثمة شـعورًا إنسانيًا غامضا يقرّبني منه، ذهبنا إلى جامع أحمد بن طولون ودلفنا معًا إلى صحنه العتيق وحكيت له أنه من أقدم جوامـع مصر وأن الصلاة لم تقم فيه منذ قرون طويلة ويقـال أن الله انتقم من ابن طولون بذلك، لأنه عاقب المهندس القبطي الذي بناه فسجنه، فلعنه الأخيـر ودعـا عليـه ـ هكـذا تقـول الأسطورة.

قال رودلفو أنه خلال الأيام القليلـة التـي أمضـاها بمصر، شعر وكأنه ولد هنا وعاش عمـره كلـه فـي هـذا المكان، وحكى لي أيضًا أنه حلم منذ يومين وهو في فندقـه بالزمالك بأنه قابل جدّه عثمان، وأن الأخير ظـل يحتضـنه ويقول له: ها أنت عدت أخيرًا ثم إنه رأى أبو الهول يفـتح فمه ويصلي بصوت عال جميل تلك الصلاة التي سمعها قرب الفجر وهو غافٍ في فندقه بالزمالك.

حاولت أن أوضح وأقول له، أن الأذان غير الصلاة، لكن إنجليزيتي لم تسعفني بكلمة واحدة تفيد المعنى، غير أني شرحت له أن الأذان دعوة للصلاة وليست الصلاة ذاتها، لأن في الزمن القديم، لم تكن هناك كهرباء ولا ميكروفونات ولا ساعات يد أو حائط، فابتدعت المآذن واختيرت أجمل الأصوات وأرقها لدعوة الناس للصلاة، وتمنيت بداخلي بينما كنت أقول ذلك ألا يكون المؤذن الذي سمعه رودلفو واحدًا من بوابي العمارات ذوي الأصوات البشعة التي تقتحم الآذان طوال الوقت، بعد أن احترفوا الأذان في جوامع صغيرة ضيقة، أسفل البنايات والعمارات.

يبدو أن رودلفو أعجبته هذه الأفكار التاريخية الخاصة بالأذان إذ قال فجأة:

ــ أبو الهول كان جميلاً جدًا وهو يقول الله أكبر. الله أكبر.

ــ وأشهد أن لا إله إلا الله. قل يا رودلفو

ــ ماذا؟

ــ أشهد أن، لا، إله، إلا، الله.

رددت الكلمات ببطء فكررما قلت بحروف عربية ركيكة مما دفعني للابتسام وأنا أقول له:

ـ إذن ... أنت مسلم الآن ... مسلم كجدّك الشيخ عثمانو فالشهادة هي أولى خطوات الإيمان.

رد بحماس:

ـ أنا مسلم طبعًا. أقصد أنا لست ضد الإسلام ولست ضد أي دين، وفي بيتنا أمي كانت مسيحية كاثوليكية، لكن كانت لديها معتقدات هندية أيضًا وربما معتقدات إسلامية أيضًا ـ ودون أن تدري ـ أَوَلَمْ يعش المسلمون في الأندلس قرونًا طويلة؟، أولم يستعمرنا الأسبان المتأثرون بالعرب بعد ذلك؟. الحروب بشعة وأبشعها حروب الاستعمار، لكن يبدو أن الفائدة الوحيدة للاستعمار هذا هو أنه ودون أن يقصد نَقَل ثقافاتٍ وسَاعَدَ على امتزاج أجناس مختلفة، وأنا شخصيًا أكبر دليل على هذا.

أخذت أفكر في كل ما قاله، وأذان أبو الهول كما سماه، لكني سرعان ما عدت من أفكاري على رنين التليفون المحمول، فمددت يدي إلى حقيبتي المعلقة على كتفي لأخرجه وكانت عمتي:

ـ اسمعي يا خالدة أنا عند طنطك سـميحة فـوزي جارتنا في الدور الخامس، أصل أختها عندها مشكلة وقاصدة أنك تحليها لها، لأن عندها سوّاق سوداني عنده مشكلة وربنا يقدرك وتخلصيه منها، أنت راجعة البيت بسـرعة، اطلعـي اشربي قهوة عن طنط سميحة، أنا فوق.

كنت أشد شعري من الغيظ فعلاً، فعمتي لا تكف عن اقتحامي عبر المحمول في أي وقت تشاء، وهـي تواصـل إفساد لحظاتي وتدخّلها في شئوني من خلاله، وقصة السواق السوداني ربما تكون واحدة من قصصها المؤلفة المختلفة، أو ربما كانت واحدًا من كمائنها المعهودة لتقديم عـريس مـن العرسان المختبئين في جرابها دومًا لي ... قلت بنبرات تكاد تنفجر على شفتي:

ـ عمتي، أنا في الشارع مع ناس ولما أرجع نـتكلم في الموضوع ... سلام.

اشترى رودلفو بعض الهدايا مـن محـل عاجيـات مصرية، تملكه سيدة فرنسية ويقع أمام جامع طولـون، ثـم توجهنا بعد ذلك إلى جامع السلطان حسن والرفـاعي وبـدا مبهورًا بعمارة الجامعين وضخامة بنائهما، وعندما خرجنـا

طلب رودلفو من بعض المارة التقاط صورة مشتركة له ولي أمام باب الجامع الضخم، وبينما كنا نسير بعد ذلــك، علّــق بإعجاب على الطلاب الذين كانوا يجلسون بصــحن الجــامع لاستذكار دروسهم، ثم إننا جلسنا بعد ذلك بواحد من المقاهي الشعبية المنتشرة بالمنطقة لنشرب الشاي، وطلب هو نرجيلة أيضًا وبينما رحنا نحتسي الشاي ونتابع بأعيننا تدفق الرائحين والغادين في الطريق دونما انقطاع قال:

ــ لم أكن أتخيل أبــدًا، أننــي ســأجلس ذات مــرة لأحتسي الشاي في المكان الذي عاش فيه جدي يومًــا، لــو عشت يومًا من ذات الأيام في مصر، سوف آتي لأسكن هذا المكان الفريد الخاص.

صمت، ثم أضاف بصوت استشعرت منــه وكــأن عصافير كثيرة حطت مرة واحدة على حباله الصوتية.

ــ أظن أنني لابد وأن أعود مرة أخرى إلــى هــذا المكان، فثمة شيء غامض يشدني إليه، شيء يجعلني أشــعر وكأنني عشت هنا ذات مرة من قبل.

ثم:

ــ هل ستقرئين هذه الأوراق من أجلي؟

أومأت برأسي وأنا أتطلع ببصري إلى البعيد، مفكرة فيما قاله للتو وكانت القلعة أمامنا، شاهقة شامخة تطل علينا من عليائها في صمت وبدت لي وكأني أراها لأول مرة الآن...

ما إن دخلت من باب البيت حتى وجدت عمتي جالسة في الأنتريه وأمامها طبق ترمس والراديو على آخره يصدح بصوت شادية " آه يا لموني يا لموني " هتفت بغيظ:

ــ عاملة فرح يا عمتي؟ صوت الراديو عال جدًا، الساعة دخلت على العاشرة والربع.

كنت أعرف أن سمعها ضعيف في الفترة الأخيرة وهي تظن أن صوت الراديو أو التليفزيون خفيض، سارعت بخفض صوت الراديو القديم الموضوع على المنضدة الأسيوطية في الركن بينما قالت هي:

ــ شادية، كان صوتها كأنه ندى، كلّه طيبة وحب وحنان.. الله يمسيها بالخير.

ــ طيب يا عمتي، لكن أنا طلبت منك ألف مرة أن تبطّلي تطلبيني على المحمول إلا لو كان فيه موضوع مهم

وعاجل، يعني موضوع سميحة فوزي كان لازم الكلام فيه على وجه السرعة ... خلاص يعني؟!

ردت بجد:

ـ والله العظيم الولية في غاية النكد، لأن السوّاق السوداني الشغال مع أختها هويدا من ساعة ما مات رجلها، وهي مشكلة فعلاً وأنا كلمتك من عندها لأنها قالت لي عليه وأنا نسيت أقول لك وهي ظانه أنني أهملته.

ـ طيب. قولي لي الموضوع.

ـ والنبي أنا ما فاهمة، أصل السواق سوداني والحكومة عاوزة تطرده من مصر ويروح أمريكا.

ـ يا سلام؟! قلت.

ـ آه ... وهو مسكين ومتحيرّ وعاوز يفضل في مصر.

ـ طيب والحكومة تطرده بدون سبب، كل السودانيين في مصر من زمان وعددهم كبير ومشاكلهم في مصر مختلفة لأن معاملتهم في الإقامة كمعاملة المصريين و...

قاطعتني بضيق:

ــ طيب، كلّمي سميحة فزوي وافهمي منها الموضوع.

مرّ أسبوع دون أن أتمكن من الاطلاع على أوراق رودلفو، وقد ظلت داخل مظروفها لم تنفض عنها غموضها وإثارتها بعد، كنت أجري طيلة الوقت هنا وهناك بين أروقة المحاكم المزعجة، وأقسام البوليس القذرة، بحثًا عن حقوق مهضومة للبعض أو فضًا لمنازعات ما كان يجب أن تحدث بالأصل لفرط سخافتها، لأعود في آخر اليوم منهكة، أتمدد دون راحة داخل عالم عمتي المنسوج من تفاصيل الملل والضياع واللاجدوى، ومسلسلات التليفزيون البلهاء، وأدوات التجميل، والنميمة، والسعي وراء الحظ بفتح أوراق الكوتشينة من حين لآخر، لكن على رغم كل ذلك، وعلى رغم أنها تراني معقدة وفاقدة للأنوثة مع سبق الإصرار والترصد، وأنني لا أقدّر ما حباني الله به من مواهب جسدية وخلقية حق تقديره، ورغم خناقاتنا المزمنة، إلا أنني كنت أوقن أنها الكائن الوحيد الحميم والقريب مني في هذا العالم، فهي أثمن ما في التركة البائسة التي تركها أبي لي، وفي الحقيقة كنت

لا أطيق ابتعادها عن البيت أو مبيتها خارجه عنـــدما كانـــت تفعل ذلك أحيانًا فتذهب مع بعض صديقاتها إلى الإســـكندرية أو مكان آخر.

والحقيقة أن الجانب الانتفاعي لم يكـــن غائبًـــا عـــن علاقتي بها، فمنذ أن جاءت لتقيم معي وهـــي تتكلـــف بكـــل تفاصيل حياتي اليومية التي كان أبي في السابق يقـــوم بهـــا، فلقد باتت المسئولة عن الطبخ وعن إعداد الطعام وعن كـــل شئون البيت التي أكرهها كراهية التحريم، ورغم أنها كانـــت تستغل نقطة ضعفي هذه وتستخدمها ورقـــة ضـــاغطة بـــين الحين والحين عندما تعلن:

" لولا أنك صعبانة عليّ، كنت زماني فـــي حضـــن رجل بالحلال وعلى سنة الله ورسوله. اللواء ســـعيد متـــولي مستعد يحارب عياله بعد موت أمهم ويبوس التـــراب اللـــي تحت رجلي. لو شاروت له وقلت آه. صـــحيح أنـــه علـــى المعاش، ولكنه محترم وطلعته ترد الروح وتصبي العجـــوز لكن أنت كأنك معمول لك عمل، أو مسحور لـــك ســـحر، لا عاوزة ترتبطي بواحد وتحلي عني، ولا أنا قادرة أن أتركـــك لوحدك. يعني لا أنت راحمة ولا تاركة رحمة ربنا تنزل ".

وفي الحقيقة، كنت أعرف تمامًا أن مشـــاريع زواج عمتي صارت مع مــرور الوقــت مشــاريع وهميــة، وأن حكاياتها عن الزواج باتت من نوع أحلام اليقظة، وقد كنــت أتماهى مع تلك الحكايات وأعلن أسفي لها وأعــدها بــأنني سوف أحل مشكلتها في أقرب فرصة وأتزوج، مضيئة لهــا الضوء الأخضر فتتفضل وتتزوج بمن تشاء.

يوم الخميس الماضي، حلّت الذكرى السنوية الخامسة لوفاة أبي، فذهبنا إلى القرافة أنا وعمتي، أخــذنا معنــا وردًا وخوصًا وفطيرًا وبرتقالاً وموزًا وفلوسًا فكة ودموعًا كثيــرة اختلطت مع ذكريات جميلة، وجاء المقرئون فقرءوا القرآن. وبعدهم جاء عيال ونساء ورجال غاية في القذارة والبــؤس والفقر، فوزّعنا عليهم ما حملناه ثم خرجنا ودعــوت عمتــي لتناول الغداء في مطعم فلفلة؛ طلبنا موزة لحم بالفتة ورحنــا نتذكر أبي ونحن نأكل وتدمع أعيينا حينًا ونضحك حينًا آخر وفي أثناء ذلك كان يداخلني شعور عميق بالضياع والحزن، وبأنني وحيدة تمامًا في هذا العالم وقلت لنفســي بينمــا أنــا أراقب عمتي وهي تأكل وتدخن وتســعل وتضــحك: قريبًــا ستتحول هذه اللحظات إلى ماض وإلى تــاريخ، فكــم تبقّــى

لعمتي سنين في هذا العالم؟ وكم ستبقى من الوقت في هـــذه الدنيا؟ وكم مرة أخرى سوف أكرر معهـــا تلـــك اللحظـــات الخاصة جدًا؟ ... تنهدت ولا أدري لماذا تـــذكرت رودلفـــو، وشعرت بحاجتي للحديث معه، قلت لعمتي فجأة:

ـــ والنبي يا عمتي لمـــا نرجـــع البيـــت، فكرينـــي بمظروف قديم محطوط على الشفونيرة عندي، عاوزة أبصّ فيه.

ـــ قضية مهمة جديدة؟! ردّت:

ـــ آه. قضية مهمة جديدة.

كررت وراءها دون أن أقول المزيد، حتـــى أوصـــد الباب أمام تيار فضولها الكاسح، ورحـــت أواصـــل مضـــغ الطعام.

بدت الأوراق لي عند بداية مطالعتهـــا، كصفصـــافة عجوز في آخر الخريف، صفراء، هشة جافة، وقابلة للتهشم مع أية حركة أو أقل إهمال في تقليبها.

كانت من النوع الحكومي الأصفر القـــديم، والشـــبيه بكراسات المدارس الحكومية التي كانوا يسلمونها للتلاميذ في أول العام الدراسي، غير أنها ولمرور سنوات طويلة عليهـــا

كانت باهتة بسطور زرقاء خفيفة ومتخشنة ومتخشبة عند الحواف وكأنها مومياء قديمة عولجت منذ زمن بالأعشاب حفاظًا عليها، ورغم أن من كتب هذه الأوراق استخدم قلم الكوبيا الأزرق وقد خبا لمعانه، إلا أن الكلمات فيها كانت مكتوبة بخط نسخ جميل وواضح لم يهضم الزمن حروفها بعد، وكان أكمل ما في الأمر هو أن كاتبها حرص على ضبط الكلمات بالفتحات والكسرات والشدات والسكونات، لتبدو الصفحات في النهاية وكأنها مخطوط قديم جدًا، جدير بالعرض في متحف من المتاحف خلف واجهة زجاجية، ليتباهى به مديره أمام مجموعة من تلاميذ المدارس البائسين.

رحت أقلب في الأوراق بمنتهى الرهافة والحرص، إذ كنت أخشى أن يتكسّر بعضها، ولاحظت أنها غير مرتبة وفقًا للترتيب الرقمي التصاعدي، وكانت الصفحة ٢٩ هي أول ما صادفني، ولكن ولحسن الحظ وجدت الصفحة رقم ٧ ثم رقم ٩، ثم ١١. كانت صفحات كثيرة ضائعة ومفقودة ويبدو أن جدة رودلفو الهندية كانت تنتقي ضحاياها من الأوراق بشكل عشوائي ودون أدنى تمييز لأعمارها، لتقدمه كقرابين لآلهة السحر الهندية، حتى يدفعوا عنها وعن أبنائها

الشرور ... شعرت بالغيظ من تلك الهندية التي لا أعرفها وما فكرت يومًا أنني سأفكر فيها والتي تباعد بيني وبينها عقود طويلة من السنين والمسافات، وتصورتها وهي جالسة تتربع على الأرض تشعل النار وتقرأ تعاويذها الغامضة وتنكل دونما رحمة أو شفقة بتعويذة رودلفو المفترضة للوصول إلى حقيقة جده الضائعة.

داخلني أسى وحسرة حقيقيان على ما ضاع من الأوراق، وإن كنت قد بدأت استشعر نوعًا من الضيق والملل أيضًا، فقراءة هذه الأوراق سوف تكون مهمة ثقيلة وصعبة بالنسبة لي في النهاية، أولاً يكفي ما أقرأه من أوراق القضايا ومحاضر التحقيق وقرارات الاتهام كل يوم؟، إضافة إلى أن قراءة الكلمات المضبوطة والمشكلة رغم إعجابي شكليًّا بها، مسألة غير مستساغة أو مقبولة على الإطلاق، فأنا وربما جيلي كله لم يتعود على ذلك أثناء تعلمه العربية بالمدارس، فجيلي هو جيل " شرشر نط عند البط فلفل شاف "، وليس جيل أ بَ تَ ثَ جحن أكل رُزًا، والتشكيل عنده لا وجود له منذ بدايات تعلمه العربية بالمدارس، قلت لنفسي، لا بأس، سأقلّب بسرعة في الصفحات ولو وجدت اسمًا أو عنوانًا

يدلني أو يقودني إلى عائلة رودلفو، سأكون سعيدة الحظ ولسوف أبذل جهدًا لاقتفاء أثره ولابد أن أنجح إن شاء الله، فعثمان أو الشيخ أوثمانو لن يكون مقطوعًا من شجرة بأية حال من الأحوال، ولابد وأن يكون له أبناء أو أقرباء أو أحفاد موجودون حتى الآن وعلى قيد الحياة، وبمكان ما في مصر وحتى يومنا هذا.

لكني وبعد قليل من التفكير، رحت أتساءل أيضًا: ماذا سيكون الأمر عليه إن لم أجد في هذه الأوراق ما يدلني على عائلة رودلفو أيضًا؟ ماذا سأفعل وكيف أتصرف؟

قررت في النهاية ألا أكون متشائمة وألا أستبق الأحداث، وشرعت في قراءة الأوراق بعد أن توكلت على الله وطلبت من عمتي أن تعزمني على شاي بنعناع وسكر خفيف تعمله بيديها الحلوتين.

رحت أرتب الأوراق بحرص وحنو وتعاطف، وكأنها مجموعة أطفال نجت من مذبحة حقيقية وليست أوراقًا تبقّت من حرائق جدة رودلفو السحرية، لكني وبينما كنت أفعل ذلك لم أكن أظن أو أدري أنني سوف أقع أسيرة سحر من نوع آخر، سحر غامض غريب، يوقظ ولا يخدر، ينبّه ولا يغيِّب،

وكنت لا أعرف على وجه التحديد، هل كانت جدة رودلفـــو تقف وراء كل هذا أم ماذا؟

أوراق عثمان حنفي

الصفحة - ٧ -

ثم إنني رتبت أموري والضيق واليأس يأخذان مني مآخذًا، وقلت لروحي: حسبي الله ونعم الوكيل منكم يا ظلمة يا كفرة، وكنت أقصد حكومة الخديوي وعسكره، والتي ما بات خافيًا على أحد الآن ظلمها وافتراؤها فمالي أنا والابتعاد عن الأوطان، فالغربة ليست لأمثالي، وليتني كنت ذاهبًا إلى مكة أو ذاهبًا إلى القدس، بل أنا ذاهب إلى بلاد بعيدة، غريبة لا يعلم ما بها إلا الله، وكان ما يؤرقني هو أنني لم أكن موقنًا من زمن بعينه أعود فيه إلى دياري، ولا زمان أعقد فيه عقد لقاء مع أحبتي وأترابي، ولولا ما يمكن أن يقال عني، لكنت بكيت كما تبكي النساء، لكني تجلدت وتماسكت وأنا أتذكر قول الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني

ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أتمنى الشرَّ والشرُّ تاركي

ولكن متى أُحَمل على الشرّ أركب

ويوم الرحيل، كان يومًا مهولاً مشهودًا في " حُفْن " وما جاورها من بلدات، ففيه بكى بعضٌ من رحمي من ذوي الشوارب، قبل العيال والنسوان، وخرجت البلد كلها بصغيرها وكبيرها لتوديعي، وألقى الشيخ عبد المتعال مسعود حبيبي ونديمي شعرًا كثيرًا من عنده ومن أوابد الكلمات وكذا قصيدة " ودّع هريرة إن الركب مرتحل"، وكان البكاء والولولة يسمع عن بعد، وبدا الأمر وكأني ميت ولست مسافرًا في مهمة فرضت عليّ فرضًا، وقد حاولت تهدئة الجميع قائلاً: ما كتب على الجبين لا بد وأن تشوفه العين، وإن الله قدر وشاء وإنني سأعود إليهم سالمًا بإذنه في القريب، وكلامًا كثيرًا من هذا النوع مستهدفًا تهدئة الخواطر، وتسكين النفوس، وظللت أعيد وأزيد في الكلام حتى يهدأ الجميع، والحقيقة أنه كان يكمن في داخلي على رغم كل شيء، مؤمن يُدرك أن الموت إنما هو الموت وإن تعددت الأسباب سواء هنا أو هناك وأن كل من عليها فان ولن يبقى غير وجه ربي ذي الجلال والإكرام، ثم إنني قلت للجميع أن الحرب ليست كاري وهي ليست لأمثالي، وإنما أنا شيخ ذاهب مع الأورطة لتأدية واجبات الدين وفروض الشريعة

ووجودي إنما هو ضرورة سوف تفرضها ظروف ما سيكون من استشهاد وموت، ولكني كنت أقول متأسيًا مواسيًا لروحي أيضًا وقد تمثلت قول القائل:

أرى لدهري إقبالاً وإدبارا

فكل حين يُرى للمرء أخيارا

يومًا يريه من الأفراح أكملها

يومًا يريه من الأحزان أكدارا

وكل شيء إذا ما تم غايته

أبصرت نقصًا به في الحال إجهارا

فلا يغر لصفو العيش مُرتشد

لأن إحسانه ما زوال غرارا

ولا يَخفى أنه كان بنفسي، أثناء ذلك، الكثير من الخوف والوجل والاضطراب والوحشة للمغادرة والبعد إلى أرض مجهولة، وبقعة ما كنت قد سمعت عنها قط، أو عرفت أنها أرض معلومة من أراضي المسكونة، ولكني كنت أقول متأسيًا لروحي أيضًا: ما قدر الله شاء، وكانت شدة تأثري إنما هي على أولاد أختي حميدة: على وحسين وعبد الصمد وخضرة، وهم العيال الأيتام الذين فقدوا أباهم وقت وباء

الهواء الأصفر المعروف بالكوليرا، وكنت قد خلصتهم من رقبتي التي تكالبوا عليها ساعة الوداع بصعوبة، وأنا أعدهم بجلابيب جديدة وحلاوة من بر مصر عند عودتي، ودموع العين محتبسة تكاد تفر من مآقيها.

الصفحة - ٩ -

ولقد ارتحلنا في زمهرير الشتاء، عند صباح يوم لم تطلع شمسه، كان الثامن من ينـاير الإفرنجـي، أي طوبة المصري من العام ١٨٦٣ من بور الإسكندرية المعمورة على النقالة الفرنساوي المسماة " لاسين "، وكانت الأورطة بكامل لباسها وعتادها، وكان جُل جنودها شباناً ذوي بُنى قوية ومنظر حسن كخليفة سودان، وبخيت خميس، وكودي الفيل، وسعيد الجيش، ومرسال سودان، ونوركومي، وأنجلو حبيب الله، وسعيد كورد كتلي، وكوكو سنداله، وجفوله درع الفيل، ونياننده، وغيرهم بالإضافة إلى ترنبيته جي فرج صدق، وبروجي عبد النبي عبد الكريم، وجميعهم صُرفت لهم قبل رحيلهم ملابس من صنف التيل بسترات قصيرة، بحيث كان لكل جندي طقم وكسوة وقميص ولباس وزوج جوارب وسجادة وبطانية وكبود، وكان لكل ضابط كسوة من الكساوي

المخصصة للضباط المشاة وإسبالتات حسب علو رتبة كـل منهم، كما أن الخيام التي ستكون مأوىً لهم، ثم اختيارها من الخيام الجديدة النظيفة، والحقيقة أن زي الجنود كان غاية في الروعة والاحتشام، فالبزات المطبقة على الصدور العريضة ذات الياقات القصيرة والأزرار النحاسية المصطفة، أضـفت على أفراد الأورطة جلالاً وجمالاً، وكانت ألبسـة الضـباط كألماس أفندي تزيد على ألبسة الجنود في ضروب التطريـز وتزيد على كسوتهم أيضًا بصدرية ذات أزرة يلبسونها تحت السترة، وكانت جميلة تكسب الضابط رونقًا ومهابة، وكانـت ملابس الضباط تختلف عن ملابس الجند في نـوع الجـوخ ولونه أيضًا، وكذا أنواع الشارات التي تبين الرتب فالأمباشي كان يحمل على صدره شـريطًا واحـدًا والجـاويش اثنـين والباشجاويش ثلاثة، والصول نصـف هـلال مـن الفضـة والملازم الأول نصف هلال ونجمًا من الفضة أمـا الـذهب فكان للقائم مقام الذي يؤشر بنجم ذهبـي وهـلال مرصـع بالألماس، وهكذا.

وكان مولانا الخديوِ سعيد قد أمر وشـدّد علـى أن تكون ملابس الجنود غاية في الدقة والإتقـان حتـى يبـدوا

بمظهر مشرّف مشوّق والحق أقول ــ كان مهووسًا بكل مظاهر العسكرية وعنجهيتها، وكان مثله الأعلى ــ كما أدركت من ألماس أفندي ــ العسكرية الفرنساوية وخصوصًا هندامها، وهو الذي ابتدع التجنيد على هدي جدول عام للمواليد في عموم أنحاء القطر، لتكون الدعوة إلى العسكرية في حينها أمرًا يتم من تلقاء ذاته، فضجت البلاد في بادئ الأمر وتململت، لكنها انتهت إلى الطاعة والامتثال، وخلال لحظات الصعود على النقالة لاسين، بدا المشهد مهيبًا، يجل عن الوصف، ومُلجمًا إلجامًا لبلاغة البليغ، ويعلو عن قدرة اللبيب الأريب فما إن بدأ الترنبيته جي فرج صدقي يصدح ببوقه بمارش الوداع والمغادرة، حتى جاشت مشاعر جميع الراحلين والمودعين لهم، ولا أظن أنني سأعيش مثل هذه اللحظات مرة أخرى مهما حييت، وقد اقشعّر بدني رهبةً وفرقةً والتياعًا، ونظرتُ الوجوه المجتمعة جميعها، فأبصرت دموعًا فرّت من المآقي ودموعًا دونها تحجرت واستقرت في مكامنها، وثمة مرارات استشعرت طعمها في الحلوق اعتصرت الجميع، وعُبّر عنها بالتنهّدات الطويلة المتحسرة،

ناهيك عن جز الأضراس، وابتلاع الهواء وقد غـاب عـن الصدور بين الفينة والأخرى.

الصفحة ـ ١٠ ـ

وقد خاضت لاسين غمار البحـر الرومـي، حتـى وصلت بنا إلى الميناء الفرنساوي طولون، وهناك خرج إلينا ضباط وجنود من الفرنساوية المعنيين والمعينين للحرب فـي مكسيكيا، وكان كل شيء على ما يرام، غير أنهم تنبهوا إلى أن الأورطة المصرية لديها سلاح يخـالف أسـلحة الجنـود الفرنساوية، إذ كانت قد صرفت في مصر للعساكر بنادق من نوع الشخشانة المقلوب ومنعـت عـنهم الـذخائر إلا حـين الوصول إلى مكسيكيا خوفا من استخدامها في مـا لا تُحمـد عقباه لا قدّر الله، مثل أن يحدث تمرّد من الأنفار والجنود، أو أن يستخدم في منازعات بين أفراد الأورطة، ولعل ذلك كان واردًا، بسـبب رداءة الأطعمـة، ومشـقّة السـفر، وكثـرة المشاحنات الناجمة عن ذلك.

وبدأ تداول الأمر بين القادة الفرنساوية والمصـرية بعد أن ظهرت المتاعب والعراقيل من جهة الذخيرة، فما كان من الفرنساوية إلا أن قاموا بتوزيع أسلحة فرنسية على جميع

أفراد الأورطة، وتم إيداع أسلحتهم في مخازن الجيش الفرنسي بطولون، على أن يستردوها عند رجوعهم إلى مصر، وكان التفاهم بين أفراد الأورطة المصرية والفرنساوية صعبًا للغاية في بداية الأمر، فلا أحد يعرف رطانتهم اللاطينية، وهم لا يعرفون لغة القرآن، غير أن هذه المعضلة سرعان ما حُلَت وتم تداركها، فقد قام الفرنساوية باستخدام بعض الجنود الجزائريين الذين كانوا معهم في حرب مكسيكيا للترجمة بينهم وبين سائر الجنود من أبناء الفرقة، فتم معرفة احتياجاتهم وما تعذر في معايشها وحياتها كل يوم. فلما تم ذلك كله وانتهى، واصلت لاسين الإبحار مخترقة المحيط العظيم، ذا الأمواج الجبارة والمياه التي لا حصر لها، وخلال السفر الطويل الذي دام سبعة وأربعين يوما، مات سبعة من الجنود، خمسة منهم أصيبوا بحمّى حار الأطباء في توصيفها وعلاجها فتم عزلهم بعد أن عجزت العقاقير والأشربة عن علاجهم، أما الآخران، فقد كان من أمرهما أن أحدهما سقط من أعلى الصاري أثناء صعوده إليه عند الظهيرة بسبب اختلال توازنه وتعذر انتشاله لهيجان الأمواج وعلوها، والآخر اختفى ولم يعثر له على أثر حتى

الآن، ولم تعرف كيفية موته، وهذا المسكين مثله مثل الكثير من الجنود الذين في الأورطة، كان قد تم الإتيان به من الغابة وهو لم ير البحر أبدًا، وكان يظن مثلما ظن غيره من الجنود أمثاله أن هدير المحيط إنما هو زئير وحش مغمور بالمـــاء، سيخرج على حين غرة ويلتهمهم، فكان المسكين يصرخ بين حين وآخر دون أن يجدي معه تكدير أو ضرب أو تقويم، أو أن تفلح معه عقاقير مهدئة، أو قراءة آيات قرآنية مطمئنـــة، كنت أقرأها على رأسه وقاوم برقايته، والمصيبة أن المسكين كان مصابًا أيضًا بآفة المشي أثناء الليالي، فرجّح بعضهم — وقد يكون مصيبًا — أنه سار والجميع نيام، وربما ألقى بنفسه إلى الماء دون أن يدري أو يسمع نداءه طلبًا للإنقاذ أحد، غير أن جثته لم تظهر قط ولم تطفُ طوال الأيام التالية لاختفائه، فصلينا عليه صلاة الغائب، مثلمـــا صـــلّينا علـــى الخمســـة الآخرين الذين تلفوا، ثم إننا ربطنا كل واحد مـــنهم بحجـــر، وألقيناهم في الماء حتى تغوص جثثهم فـــلا تطفـــو وتأكلهـــا الأسماك المتوحشة.

ثم إنّه يوم وصولنا إلى بلدة تدعى فيراكروز وهـــي أكبر فرضة في مكسيكيا ...

الصفحة ـ ١١ ـ

كان الثالث والعشرين من شهر فبرايـــر الإفرنجـــي، وكانت الأورطة بقيادة البكباشي جبرة محمد أفندي ووكيلـــه ألماس أفندي وهما من أفاضل الرجال وأشدهم عزًا وبأسًا.

ولم يكن ذلك الاضطراب، وكما سبق أن قلـــت، إلا بسبب أنني لم أر من قبل كل هذا الماء المالح الكثير، فحتـــى بحر النيل في وقت أسمى الفيضانات لم يكن ككل هذا المـــاء الهادر الذي رأيته بالمحيط، فأي وجل داخلني، وأي خـــوف أخذ بي من ناصيتي حتى أخمص قدمي، فلئن احتملت بحـــر الروم رغم مصاعبه على مضض وكره، ضارعًا صـــائمًا، مصليًا، طالبًا من الرحمن الرحيم أن يرحمنا برحمته، ويمـــنّ عليَّ وعلى من معي بالنجاة، فما بالك بهذا المحيط الجبار ذي الأمواج المصطكة المصفقة التي راحت تتلاعب النقالة فـــي رعونة واستخفاف وكأنها ورقة في شجرة تطوحها أراجـــيح الريح، ورغم أنني مُنحت رتبة نفر، ودُربت على اســـتخدام البارود، وجُربت في العوم والسباحة، إلا أن الخـــوف ظـــل ينازعني ويعصف بقلبي، ورغـــم مـــودّة الفرنســـاوية لـــي، واحترامهم لكينونتي الدينية في كل سكنة وفي كل هنة عنـــد

تعاملهم معي، إلا أن الطعام لم يكن على ما يرام وقد تعفنت بعض مؤن الفول والأرز بسبب رطوبة البحر، ونفقت بعض الخيول، وبقيت الخيّالة دونها على أمل استعواضها عند الوصول، كما أن الصراصير البحرية الطيارة التي لم أر مثلها حجمًا من قبل، قد عاثت فسادًا في نواشف الطبخ من أمثال البامية والملوخية والكشك الصعيدي والفريك، لكن يشاء السميع العليم أن يكفينا ما تبقى من مؤن حتى وصولنا إلى فيراكروز.

الصفحة ـ ١٨ ـ

وكان جل الجنود والأنفار من الرجال السودان الذين جلبوا جلبًا من بلاد السودان والنيل التحتاني ومناطق العبيد، وأكثرهم كانوا ممن صيدوا أو بيعوا في أسواق الخرطوم وكان الباشا الكبير ولي النعم يأتي بهم للمتاجرة ضمن تجارته الواسعة مع الإفرنج، وكان هؤلاء في جملتهم شبانًا حديثي العمر ذوي قامات مديدة وجسوم قوية شديدة وهم لا يشبهون في لونهم أهل أمي الذين زرتهم معها في صغري مرة نواحي بلاد النوبة، وكانت الحكومة قد اختارتني لهذه البعثة أيضًا بسبب لوني وأصلي السوداني النوبي، وكنت قد ابتليت

بداء الجهادية، وخدمت في الجيش قبـــل أن أكمـــل تعليمـــي الأزهري منذ زمن، فقد سرى وطبق عليّ ما سنّه الخـــديوي سعيد من سنة وهي أن كل شاب يبلغ السادسة عشـــرة مـــن عمره يخدم في الجيش إلزاميًا سنة واحدة لا غير، فلما أبليت فيه بلاء حسنًا، أي الجيش، وكنت نموذجًا للجنـــدي الكـــفء استبقوني فيه، وصرت نفرًا ولكن ذلك لم يحل دون حرصي على إكمال علومي الأزهرية التي سعيت إليها سعيًا دءوبًـــا، وقد علمت من ألماس أفندي وهو سوداني الأصل، أن شروط الفرنساوية مع الخديو كانت أن يمدهم بجنود مـــن الســـودان السود، وكذلك كل من يذهب معهم ويخدم عليهم بأي أمر من الأمور، وقال ألماس أفندي أن الفرنساوية ما أرادوا ذلـــك إلا بسبب أن سواد البشرة يقي ويقاوم ما بهذه البقعة مكسيكيا من أمراض وصعوبات لا يقوى عليها البيض مـــن الفرنســـاوية والفرنج، ورغم أن أبي أبًا عن جد كان مـــن بلـــدتنا حُفْـــن السوهاجية إلا أن أمي كانت نوبّية وهي التي أنعمـــت علـــى العبد لله بسواد الجلد ودكونته، وكذا كثافة الشعر وخشـــونته، وكانت الوالدة في الأصل جارية أعتقها الوالد بعد أن بنى لها وأنجبتني لأن زوجته الحرّة الأولى لم تنجب له غير الإناث،

وها هي حكمة العزيز الجبار تتجلى فأذهب إلى ما لم أفكـــر فيه يومًا ولا جال بخاطري أبدًا من هجرة الأوطان ومفارقة الأحباب والخلان، وأحمد الله أن أمي ماتت قبل أن ترى هذا بعينيها وإلا كانت تحسّرت وتلوعت وكمدت موتًـــا لفراقـــي وكما قيل:

وعودت نفسي الضيق حتى ألفته

وأخرجني حُسن العزاء إلى الصبر

الصفحة ـ ١٩ ـ

ومن المفارقات في هذه الرحلة هو أنني تعرفت على بعض الطباخين المجلوبين من أسوان لمباشرة كل ما يخص طعامنا وشرابنا أثناء الرحلة وقد رســمُوا جمــيعهم جنــودًا أيضًا، وكان من بينهم النفر سلمان الدرديري الــذي طالمــا كنت أسامره في الليل، وهو من اشتهر في الأورطة بعمــل الأعمال وفك العكوسات وإتيان التنجيم، وقد قال أنه نجــومي أبًا عن جد، لكن أباه حرّم عليه كسب قوته من هــذا الأمــر واستحلفه على المصحف أن يكون كل ما يطلع عليه خدمــة لوجه الله تعالى وفعل الخير، وكنت كثيرًا ما أمازحه وأسمعه ما قاله البهاء زهير في ذلك إذ قال:

لا ترقب النجوم في أمر تحاوله فالله يفعل لا جدي ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر فلا يغرك مريخ ولا زحل

الأمر أعظم والأفكار حائرة والشرع يصدق والإنسان يمتثل

فكان يتضايق قليلاً وكأنه يستشعر أنني أستخف بما يستهويه، لكنه سرعان ما يتفرس في وجهي ويبش مرة أخرى.

الصفحة ـ ٣٥ وما تلاها ـ

وفي ٢ أكتوبر الإفرنجي سنة ١٨٦٣، وفي الساعة السابعة صباحًا بارح القطار العادي محطة فيراكروز، ميممًا السوليداد وكان يقوم بحراسة هذا القطار أربعة عشر جنديًا منهم سبعة من البلوك الأول من بحارة جزر الأنتيل والسبعة الآخرون من الأورطة السودانية المصرية وهم بخيت بدروم الجندي الأول وإبراهيم عبد الرحمن ومحمد عبد الله، وعمر محمد، ومحمد علي، وجميعهم جنود، وكان القطار مؤلفًا من عربات للمسافرين، وكان من بين هذا العدد مسيو ليجبيه رئيس أورطة في ألاي الأجانب، ومسيو شرر ملازم من بلوك المهندسين الوطني ومن أهالي جوادلوب، ومسيو بوتنايل ملازم ثان في حرب القارات جريلا ومسيو ليونز مدير السكك الحديدية، ومسيو فرنك رئيس مهندسي السكك

الحديدية، ومسيو سافيلي قص السوليداد، وعدد كبيـــر مـــن النساء والأولاد والعبد لله ساطر هذه السطور، وكان القطـــار متجهًا إلى تيزاريا بسرعة تتراوح بين ١٥ و ١٦ كيلو مترًا في الساعة ووصل إلى موضع يقال له لوما دولاريفستا حيث الطريق عرضه أربعة أمتار تقريبًا بين سفوح الجبال المجللة من الجانبين بالأحراش والآجام الكثيفة وكـــان فيهـــا مـــنحن وعر، وعندئذ لمح سواق القطار بعض القضبان منزوعة من أماكنها وفي الحال حول قوة البخار محاولاً الرجـــوع إلـــى الخلف، غير أن القطار برمته استمر هنيهة سائرًا في طريقه مدفوعًا بقوة سرعة سيره، فسقطت عندئذ العربات الأولى ولم يستطع أحد أن يدفع حدوث هذه الكارثة.

وكنت خلال ذلك منشغلاً بالفرجة على تلك الآجـــام الشاهقة ذات الألوان الخضراء المتدرجة ومختلفـــة التبـــاين والتي ما كنت قد شاهدت مثلها من قبـــل، ولقـــد روى لـــي تفاصيل ما حدث شهود العيان الذين كانوا في العربة الأمامية بالقرب من السائق، وقد قال لي بخيت بدروم الجنـــدي الأول أنه سمع بعد سقوط العربات الأولى دوي إطلاق المدافع بشدة من جانبي الطريق، وكان اتجاه الطلقات من أعلى إلى أسفل،

ولم يكن في حيز الاستطاعة رؤية المهاجمين، فجرح سـائق القاطرة وشخص من المسافرين، وعلى إثـر ذلـك، أسـرع بالرجوع من العربات كل من نزل منها واتخذ القائد ليجييـه خطة الدفاع، ونزل ليفحص الموقع وينظر فيما إذا كان فـي الإمكان الهجوم على العدو من الجنب، وفي غضـون هـذا الاضطراب الشامل وبلبلة الأفكار الناشئة من خروج القطار عن طريقه، ومن ولولة النساء وصياح الأولاد، وحيرة كافة المسافرين، ما كان يساور رؤوس السبعة المصـريين غيـر فكرة واحدة ألا وهي القيام بواجب وظيفـتهم وأن يسـتعدوا لإطلاق النيران على الأعداء، إذا لاحت أشـباحهم وبانـت، وكانوا ينتظرون وهم متخذون من جوانب العربـات مـوقى لهم، في الوقت الذي يشتبكون فيه في القتال مع العدو برباطة جأش جدية بالثناء العظيم والإعجاب المتناهي، وعندما وقـع نظر جميع رجال الحرس على القائد ليجييه وهو نازل مـن العربة تبعوه ليقوموا بتنفيذ أوامره، ورغـم شـدّة إطـلاق النيران، أمكن استكشاف مواقع العدو بـلا عـائق لأن هـذه النيران مع شدتها لم تكن فتاكة، وما ذلك إلا لأن المكسيكيين

كانوا مضطرين أن يلبثوا محجوبين عن الأعين كيلا تصوّب نحوهم طلقات البنادق.

ولما تحقق القائد أنه ليس في الاستطاعة الهجوم على العدو من الجنب، أراد أن يهاجمه وجهًا لوجه، فقذف بالأربعة عشر جنديًا إلى المرتفعات، ولكن هذه كانت مغطاة بالآجام المتناهية الكثافة فما استطاعوا تسلقها واضطرا أن يرتدّوا على أعقابهم واتخذوا من العربات مرة أخرى وقاية لهم، وفي غضون هذه الحركة أصيب القومندان ليجييه بجرح مميت وجرح أيضًا جندي من البحارة، فبث هذا الحماسة في نفوس المهاجمين فضاعفوا الطلقات، وصار لا محيص من التقهقر، وفي اللحظة التي كان يصعد فيها القومندان ليجييه إلى العربة بمساعدة بلال حماد، أصيب هذا بطلق ناري فخر صريعًا وقضى نحبه وعندئذ تطوع بخيت بدروم، وأتوم سودان وحملا أولاً القومندان ليجييه ووضعاه في عربة السكة الحديد، ثم رجعا إلى بلال حماد، وكانت تحميهما في هذه الفترة نيران من بقى من الحرس المبعثرين خلف جميع العربات.

ومن هذه الساعة تسلم الملازم شرر القيادة العامة، ورتب رجاله بطريقة عملية تُمكّن من تلاشي كل محاولة هجوم يقوم بها المكسيكيون لأخذهم عنوة، ثم أرسل أحد رجال السكة الحديد إلى تيجيريا وإلى فيراكروز ليعلموا رياسة القومندانية بموقفه ويطلبوا منها إرسال نجدات.

وكانت تيجيريا في ذلك الوقت تحتلها فصيلة من السودانيين المصريين مؤلفة من ضابط واحد، وخمسة وأربعين جنديًا وكانت هذه الفصيلة تحت إمرة الملازم الثاني رازود من ضباط الآلاي الأجنبي، وهذا الضابط كان قد أخبره جواسيسه من الصباح الباكر بأن عددًا عديدًا من المكسيكيين يتألف من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة رجل تقريبًا يضربون في جوانب القطار، فما كاد يبلغه هذا النبأ حتى قام بكتيبته المصرية السودانية مسرعًا وولى وجهه شطر اللومادو لاريفيستا سالكًا أقصر الطرق.

واستمرت رحى الحرب دائرة في غضون هذه الفترة، وكان رجال حرس القطار يصوبون بإحكام بنادقهم على المكسيكيين ولابد أن نيرانهم ألحقت بهؤلاء أضرارًا بالغة، ويستدل على ذلك من أنهم أرادو مرارًا تخليصهم مما

حاق بهم من الضيق والكرب أن يحاولوا النزول من الجبل لينازلوا الحرس جسمًا لجسم، ولكن محاولاتهم ذهبت هباء وفشلاً تامًا، وقتل أتوم سودان رجلين منهم كانا قد وصلا إلى مكان لا يبعد عنه سوى بضعة أمتار، وظل العدو يشن الغارة أكثر من ساعة حتى بدا في طلقاته النقص، ثم فترت فجأة وانقطعت بعد دقائق معدودات ومع هذا لم يشأ مسيو شرر أن يخرج عن دائرة خطة الدفاع خوفًا من أن يكون انقطاع النيران حيلة مدبرة، وظل وقتًا يسيرًا ملازمًا التربص، ثم عقب ذلك ذهب رجل من الهنود المحليين للاستكشاف ولم يلبث أن عاد وأخبر أن المكسيكيين أخبروا رئيسهم بقدوم حامية تيجريا فشدوا رحالهم وتركوا الميدان اتقاء الوقوع بين نارين.

وتسنى عندئذ لحرس القطار أن يستريحوا ويتنفسوا الصعداء ويعاونوا المجروحين، وبلغت الخسائر مبلغًا لا يستهان به، فأدركت المنية القائد ليجبيه وكان بلال حماد على وشك أن يطلع سره الإلهي، فوقفت على رأسه مع الواقفين وأنطقته الشهادتين بصعوبة، ثم أذنّت الأذان في أذنه والدموع ذوارف من الجميع عليه حتى أكرمه العلي القهار بلقائه

وأراحه مما هو فيه من عذاب ومعاناة، وكان القس سـافيللي معنا، فقام بواجبه الديني تجاه القائد ليجبيه أيضًا، وكذا السائح المكسيكي الذي كان في القطار وقتل كذلك على الرغم مـن جروح ساقه وكتفه ونزيف الدم منه خلال ذلك الوقت.

وكان مما أفاد في عدم وقوع خسائر كبيرة، هو وجود تلـك الكوكبة الراكبة المؤلفة مـن خمسـين فارسًـا مـن جنـود الأورطة، والتي كانت قد تقررت من قبل لتقوم بالاستكشاف وحراسة السكك الحديدية، على أن تعامل معاملة المسـاعدين المكسيكيين من حيث الراتب، فيتحصل لأفرادها ما يتحصـل للآخرين من مكسيكيا على مكافأة إضافية من بلدية فيراكروز نظير معاونتهم لشرطة المدينة.

رفعت رأسي عن أوراق الشيخ عثمان، وفركت عيني قليلاً، ربما لأتيقن من أنني لست في حلم من الأحـلام، وداخلنـي شعور بأنني بطل هـ. د. ويلز في رواية آلة الزمان التـي كنت قد قرأتها مبسطة ذات يوم وأنا تلميـذة صـغيرة فـي المدرسة الإعدادية ، وساءلت نفسي: هل دخلت آلة الزمـان حقًا؟، فلقد كان كلما قرأته لتوي يتجسد أمامي وأراه شخوصًا ومواقف، وكأني أتفرج على فيلم من أفلام الغرب الهوليودية

في السينما ، مددت بصري عبر النافـذة المفتوحـة علـى مصراعيها أمامي حيث البناية العالية المحاصرة للأفق، وقد رسم عليها شاب بملابس الكاوبوي يمتطـي صـهوة فـرس ويدخن سيجارة وقدح كتب فوق قبعته " وسترن مذاق الغرب " ... تنهدت وتساءلت مرة أخرى " هل كان الشيخ عثمـان مؤرخاً؟. أم أن ما كتبه كان نوعًا من المذكرات الشخصـية، ولماذا سجل تفاصيل المعارك على هذا النحو الدقيق وهو في غربته البعيدة؟ ".

أخرجني صوت عمتي الناعم من تأملاتي، وجاءني ممزوجًا يضجر، ينذر برغبتها في جولة من المشاحنات معـي بحثًـا عن إثارة وتزجية للوقت، إذ سمعتها تقول:

ـــ مالك قاعدة مبحلقة في السقف وكأنك ناوية أن تحضـري الأرواح؟، أعمل لك شاي، أنا عاملة لنفسي قهوة؟.

ـــ آه. عاوزة الشاي.

ـــ في نادي السينما الليلة فيلم لجون واين، يتهيأ لي أنه حلو، لو خرجت هاتِ معكِ خلطة لب أبيض وفول سـوداني مـن غير ملح.

عمتي مولعة بالفرجة على أفلام الويسترن، ومنذ أن وعيت عليها وأنا طفلة صغيرة، كانت تدفع إلى روحي بمهرجان من الفرح، عندما كانت تصحبني معها لمشاهدة واحد من هذه الأفلام في سينما روكسي أو سينما أوديون أو مترو، لكنني في الحقيقة ، لم أكن أنبهر بهذه الأفلام، قدر انبهاري بالستائر المخملية العالية الضخمة، وبأسد شركة مترو جولدن ماير الرابض على الشاشة وهو يزأر محركًا رأسه الملبد ذات اليمين وذات اليسار، ثم ما يكون قبل العرض من أفلام كارتون كانت تقدم للأطفال في ذلك الزمن البعيد ولا أراها في السينما الآن أبدًا، كدت أقول لها: اقرئي أوراق الشيخ عثمان، إنها أقوى من جون واين وكلينت استوود، لكنني سرعان ما تداركت أن هذه الأوراق ليست مشاهد خيال وليست للمرح والتسلية، بل هي أوراق تاريخ حقيقي لبشر من لحم ودم، بشر عاشوا وماتوا دون أن ينتبه إليهم أحد، ودون أن يتذكرهم أحد ذات يوم.

فكرت وأنا أذيب ماسات السكر الدقيقة في بحيرة الياقوت الساخن القابعة داخل الفنجان الذي وضعته أمامي عمتي، أن آخذ هذه الأوراق، وأقدمها لواحد من أساتذة التاريخ في

الجامعة، فربما يجد فيها ما لم أجده أنا، باعتباره متخصصًا في هذا المجال، وفكرت أن أهدي هذه الأوراق القديمة لدار الكتب والوثائق المصرية، بعد أن أقنع رودلفو بذلك، ولكن شعورًا غريبًا سرعان ما داخلني، إذ أحسست أن هذه الأوراق ملكي شخصيًا ولا يجب أن أفرط فيها لأي شخص أو جهة مهما كانت الأسباب، وربما كان مرجع هذا الشعور هو حالة الفضول العارم التي تملكتني، ولمعرفة ما الذي تحويه بقية الصفحات التي لم أقرأها بعد، وبدأت أتفهم أحاسيس أولئك الذين يعثرون على قطع أثرية قديمة، أو يكتشفون بالصدفة أشياء تاريخية؛ إنه شعور ناعم، أملس، يتسلل شيئًا فشيئًا كسيل طاغ ويكتسح النفس مجتاحًا كل رغبة مبهمة وكامنة في أعمق أعماقها، تهفو إلى العيش في زمان ماض قديم، زمان مستحيل التحقق أو الحدوث أبدًا، فالحقيقية هي أن الإنسان لا يحلم بالمستقبل، لكنه يحلم بالماضي، ماضي أجداده الأقدمين الذين لم يعايشهم، ولم يلمسهم أو يتحسسهم أبدًا كبشر وكحيوات عاشت وينتمي إليها، لكنه يتمنى الحلول فيها ليخوض في عوالمها السريّة المبهمة البعيدة.

انقضت عدة أيام أخرى، قبل أن أعود ثانية على أوراق جــد رودلفو المثيرة، كنت قد انشغلت خلالهــا بالعمــل اليــومي الضاغط لمهنة المحاماة، فقد سفحت وقتي خلال هذه الأيــام في الجري أو اللهاث داخــل أروقــة المصــالح الحكوميــة للحصول على توقيع من هنا أو ختم مــن هنــاك، أو فــي استخراج ورقة رسمية تضاف إلى ملف قضية كــدليل مــن الأدلة أو ثبت من الثبوت، وكان ذلك يستلزم أحيانًا، الوقوف طويلاً أمام الموظف المختص في طابور من الطــوابير، أو العودة في اليوم التالي لأن الموظفة المسئولة عن ختم النسر حدثت لها ظروف طارئة وأخذت إجازة عارضة.

حضرت خلال هذه الأيام أيضًا ندوة عــن " حــدود حريــة التعبير " في جمعية " نصرة الحق الإنساني " التــي أنتمــي إليها، واستمعت خلالها إلى أحناك كثيرة بقبقت بــالكلام دون أن أستفيد من ذلك شيئًا أو أخرج بنتيجــة عمليــة. عمتــي كعادتها، كان لها نصيب لا بأس به في التهام وقتي، فأصرّت أن أذهب معها إلى شارع عبد العزيز، لتشتري سخانًا جديدًا، بدلاً من التالف في البيت " لأنك شاطرة في الشراء يا خالــدة

وتعرفي الماركات الممتازة . والنتيجة كانت ضياع نصف نهار حتى نعود بالسخان.

ويتم تركيبه لأنه ووفقًا لعمتي: إلا السخان، لا يمكن الاستغناء عنه والانتظار أبدًا.

اليوم، ذهبت إلى مجمع المحاكم بالعباسية مع عدد من زملائي في المكتب، كنت في حالة مزاجية لا مبالية وأرغب برغبة حقيقية في النوم، رغم أنها كانت العاشرة صباحًا، إضافة إلى ضيقي بالزحام وصداع خفيف يبدأ عمله في رأسي، كان دورنا في الرول هو التاسع، وبينما كنت جالسة مع زملائي ننتظر، وقعت نظراتي على مانشيت بصفحة داخلية من صفحات جريدة الأهرام، مما جعلني أتحمس قائلة لزميلي الجالس إلى جواري يطالعها:

ـ والنبي يا أستاذ سيد هات الجورنال دقيقة واحدة من فضلك، أبص فيه وأرجعه لك بسرعة.

كان المانشيت عنوانه: " بطولة الأورطة المصرية في المكسيك ".

وتحته كتب د. عبد المنعم الجميعي، أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة فرع الفيوم مقالاً قصيرًا حول اشتراك الجيش

المصري في حرب المكسيك التي كانت ناشبة بين الولايـــات المتحدة الأمريكية من جهة وفرنسا وأسبانيا من جهة أخرى، وبدا السبب مذهلاً بالنسبة لي ألا وهو أن إمبراطور فرنســا نابليون الثالث طلب من سعيد باشا والي مصر آنذاك، مــده بفرقة من الجنود السودانيين لأن الحمى الصفراء منتشرة في المكسيك حيث تدور المعارك بين الطــرفين المتصـــارعين والجنود الفرنسيون يموتون بهــا ولا يســتطيعون مواصـــلة الحرب نظرًا لشدة حرارة الجو هنـــاك وانتشـــار الرطوبـــة والمستنقعات.

تعجبت بشدة وتساءلت محدثة نفسي بصوت عال:

ــ طيب وما علاقة مصر بالمكسيك؟ المكسيك لم تشن حربًا ضد مصر، ومصر بعيدة جدًا عن المكسيك، فلمـــاذا يقاتـــل جنود مصر والسودان هناك؟

رفع سيد صاحب الجريدة رأسه مندهشًا عن جريدة أخـــرى كانت معه وشرع في قراءتها وتساءل:

ــ مالك؟

ــ أبدًا ... وتابعت قراءة مقال د. جميعي:

وقد أبلت هذه القوات في الحرب بلاءً حسنًا، حيث اشـــتركت في ثمانية وأربعين موقعة من الفترة الواقعة ٢٣ فبراير سنة ١٨٦٣ و ١٢ مارس سنة ١٨٦٧، أظهرت خلالهـــا مهـــارة واضحة في القتال وثباتًا وشجاعة شهد لها الماريشال Fory قائد الجيش الفرنسي بقوله: " إن هؤلاء ليسوا من الجنود، بل هم من الأسود".

كدت أضرب كفًا بكف وأنا أقول لنفسي: إذن جد رودلفو كان هناك، أوثمانو كان مع الجنود السودانيين أو الأســود كمـــا رآهم فوري لم أتمكن من إكمال ما تبقى من سطور المقـــال، إذ نادى حاجب المحكمة على رقم قضيتنا في الرول، وحكـــم القاضي خلال عشرة دقائق في قضية ضرب أفضـــى إلـــى موت، وخسرناها بسبب عدم ثبوت الأدلة وضـــعف المقـــدم منها، وكسبها الخصم الذي كان جزارًا ضرب موظفًـــا فـــي هيئة التأمين والمعاشات أثناء شراء الأخيـــر اللحـــم منــــه، واكتشافه غش الجزار في الميزان.

عندما خرجنا من المحكمة قلت لزميلي الذي بـــدت دهشـــته لعدم مبالاتي بنتيجة الحكم في القضية والتي سنستأنف الحكم فيها بالضرورة:

ـــ سيّد والنبي عاوزة صفحة مـــن جورنالـــك ضـــروري، محتاجة أكمل قراءتها، أرجوك.

رد بمزيد من الاندهاش:

ـــ عاوزة صفحة الوفيات؟ ولا صفحة الإعلانات المبوبة؟

ـــ لا وفيات ولا إعلانات، صفحة الرأي والمقالات التـــي لا يقرأها أحد.

بدا لي لغز جد رودلفو قاب قوسين أو أدنى من الحل، وكنت حتى ذلك الوقت أظن أن خيوطه قد أخذت تتجمع في يـــدي، وصرت متحمسة تحمسًا لا حد لـــه لقـــراءة بقيـــة الأوراق والوصول إلى عائلة رودلفو في مصر.

قررت القيام بإجازتي السنوية من مكتب المحامـــاة، وكـــان قراري مفاجئًا لصاحب المكتب ولزملائي إذ جاء توقيته قبل شهرين مما كنت قد اتفقت عليه بخصوص ذلك، وقلت لهـــم في جمعية " الحق الإنساني: " إنني مضطرة للسفر مع عمتي إلى بلدنا، فبدت الدهشة في أعينهم إذ اكتشفوا أن لي بلدًا.

درت على المكتبات أبحث عن كتب تاريخية تتنـــاول حملـــة المكسيك فلم أجد كتابًا واحدًا يتعلق بهذا الموضـــوع، ســـألت أساتذة تاريخ معروفين عن أية دراسات أو أبحاث قـــام بهـــا

باحثون تتناول هذا الأمر، أو بطولة الأورطة المصرية كما قال د. جميعي دون جدوى، قيل لي أن هناك كتابات عن موضوعات أخرى. وجدت أخيرًا كتابًا كتبه د. لينوار تشامبرز رايت، ترجمته وعلقت عليه د. فاطمة علم الدين عبد الواحد ووجدتني أتوقف عند فقرات فيه وأقرأ:

" وقد أفسد العلاقات الطبيعية الودية بين الولايات المتحدة الأمريكية ، ومصر خلال الحرب الأهلية الأمريكية حادث غير عادي، وإن كان عديم الأهمية، حين أرسلت مصر قوات سودانية للخدمة مع القوات الفرنسية في المكسيك، ففي عام ١٨٦١ قامت فرنسا وأسبانيا وبريطانيا باستغلال فرصة تورط الولايات المتحدة في الحرب الأهلية الأمريكية، وقاموا باحتلال فيراكروز تحت زعم حماية استثماراتهم المالية، وفي أبريل ١٨٦٣ انسحبت إنجلترا وأسبانيا تاركتين نابليون الثالث يحارب بمفرده.

وفي ٧ يناير ١٨٦٣ عرف في الإسكندرية أن ما يقرب من خمسمائة سوداني قد حملوا على سفينة نقل فرنسية للخدمة مع قوات نابليون الثالث في المكسيك، ولم يذكر الراسل إلى

الإدارة الأمريكية في رسالته عن المقابل ــ إذا كــان هنــاك مقابل ــ الذي حصل عليه الوالي المصري ".

" وقد عرف في أغسطس سنة ١٨٦٥ أن هناك حوالي ٩٠٠ سوداني آخرين على استعداد للإبحار إلى المكسيك وجــرت هذه العملية بصفة علنية، إذ أبلغ وكيل وقنصل عام الولايات المتحدة في الإسكندرية بها مقدمًا، وكانت حجــة الحكومــة المصرية أن هذه القوات لا تتعدى كونها اســتبدالاً للقــوات الموجودة فعلاً في المكسيك ولذلك فهي تعتبــر جــزءًا مــن الاتفاق الأصلي مع الفرنسيين، كما وافق الباب العالي علــى ذلك الاتفاق ".

" وقد أتاحت النهاية الناجحــة للحــرب الأهليــة الأمريكيــة الفرصة لحكومة الولايات المتحدة لتوجيه عنايتها الكاملة إلى المسألة المكسيكية، لقد كان استخدام السودانيين في المكسيك ــ طبعًا ــ أحد العناصر في المُشكلة الكبرى التي تهدف إلى إجلاء القوات الأجنبية وخاصة الفرنسية من هذا البلد، وكانت حجّة الولايات المتحدة في اتهامها الرسمي أنها علمــت مــن مصادرها عن أسر أفراد القوة السودانية بالجملة بنفس طريقة جمع العبيد، وأنه قد تم بيعهم للخدمة في دولة لا يعرفونهــا

ومن البديهي أن الحكومة الأمريكية تعارض الرق مهما كان مظهره في دولة مجاورة ".

يا الله ... إذن هذا هو السبب في حـــزن كوكـــو ... كوكـــو سودان كباشي، فها هي خيوط المأساة تكتمـــل ، وهـــا هـــي الحقائق تتوضح شيئًا فشيئًا أمـــامي، فالأورطـــة المصـــرية السودانية صاحبة البطولة كانت من العبيد، وكوكو ســـودان اصطيد صيدًا، وانتزع انتزاعًا من وطنه في جبـــال النوبـــة، أجمل قطعة على وجه البسيطة، وأكثرها عذرية وبراءة، كي يقذف به في لهيب حرب لا ناقة له فيها ولا جمل كما يقال.

كنت قد تعرفت على كوكو سودان كباشي، قبل أيام قليلة من قراءتي لكتاب تشامبرز رايت، وتأمل ســطوره الفاضـــحة، وذلك من خلال أوراق الشيخ عثمان حُفني المجهولة والـــذي أفرد فيها صفحات مطولة للحديث عن كوكو وعن وبـــلاده، نسجت منها عندما نمت بعد قراءتها حلمًا جميلاً لهذا العـــالم الغريب، تخالطت فيه كلمات الشيخ عثمان مع مشاهد أرشيفية ترسب في عقلي الباطن من أفلام طرزان القديمة ورحـــلات إلى قلب قارة الماس والذهب وينابيع ماء ما هي إلا دمـــوع سماوية لا تكف عن الانهمار، كان كوكو يبدو لـــي خـــلال

الحلم، شابًا يافعًا يخطو وهو شبه عـــار، بقـــده الخيزرانـــي الرشيق فوق حبل طويل وممتد معلق في الأعالي، ســـمعت من يسميه في الحلم بخط الاستواء وكان وراءه رجال بـــيض يعدون لاصطياده، وكان كوكو كلما خطا خطوة محاذرًا فوق الحبل المغطى بكامله بعصافير ملونة بديعة، كانت العصافير تفسح مكانًا لخطواته، بينما أسود ونمور وظبـــاء وزرافـــات وحيوانات وطيور أخرى غريبة تزأر وتصيح وتغرد تشجيعًا له، وكأنه لاعب إكروبات في سيرك عجيب، وعندما نجـــح رجل أبيض في اصطياده أخيرًا، صرخ قطيع كامل من الفيلة صراخًا حادًا عنيفًا، وهنا أفقت مذعورة وأنا أستشعر جفافًـــا في حلقي وغصّة تكاد أن تحجز الهواء عن رئتي، فجريـــت إلى المطبخ لأتجرّع جرعة من ماء بارد، تطفئ ظمئي وتعيد الطمأنينة إلى روحي.

عدت إلى السرير مرة أخرى، وبقيت فترة مفتوحة العينـــين أبحلق في السقف، بينما أحاول في يقظتي استرجاع مشـــاهد الحلم مرة أخرى، كان قلقًا هائلاً يساورني ورغبة لا تقـــاوم في أن أذهب إلى حيث كان كوكو سودان ذات يوم، بين الفيلة والحيوانات والطيور، نظرت فـــي الســـاعة الملتفـــة حـــول

معصمي، كانت قد تجاوزت الثالثة بعـد منتصـف الليـل، نهضت من السرير وأضأت المصباح الموضوع على مكتبي بالغرفة ورحت أقرأ مرة أخرى ما سطره الشيخ عثمان عـن كوكو سودان وأسترجع ما قاله وأصله بما كتبه د. تشـامبرز رايت عن حملة المكسيك.

كانت صفحات كثيرة قد طارت بفعل سحر جـدة رودلفـو، ولكن الصفحة ٤٧ ويليها بعض الصفحات، كانـت مسـتقرة الآن أمام عيني حيث كتب عثمان حُفني:

" وكنت مذ تخالطت مع أفـراد الأورطـة، وبـدأت أؤمهم للصلاة كما كان مقررًا لي كشيخ مرافق ، قد لاحظت شابًا يافعًا يبقى طوال الوقت حزيناً، ساهم الطرف ، يطيـل النظر إلى البحر والماء، وكان يبدو على الرغم من جسـده الفارع وقوامه السمهري، كالمرضى المعلولين بعلـة غيـر ظاهرة، ثم إنني بدأت التقرب منه والتودد إليه، وعرفـت أن اسمه كوكو سودان كباشي، ولم يكن يعرف من العربيـة إلا قليلاً، على العكس من زميله النفر بخيت بدروم الذي ترقـى بعد واقعة القطار إلى رتبة أونباشي، وبخيـت مثـل كوكـو ومعظم جنود الأورطة، كان قد جُلب من منطقة قرب جنوب

غرب السودان تسمى جبال النوبة، لكنه تعلم العربية؛ لأنه كان في الأورطة منذ عدة سنوات، وقبل ارتحالنا إلى مكسيكيا، وكان ينقل الكلام بيني وبين كوكو بلغة الطرفين عندما يتعذر التفاهم بيننا في أوقات كثيرة ومنه عرفت أن كوكو بلغة جبال النوبة تعني الأخ الأكبر، كما أن كاكا تعني الأم، وفافا هي الأب، وكوكو كان أكبر إخوته فعلاً، وقد صيد عبدًا مغصوبًا منذ عام واحد قبل ارتحاله إلى مكسيكيا، وتم ضمه للأورطة السودانية كان عمره وقتذاك لا يزيد على عشرين سنة، ولقد كان حزينًا لابتعاده عن كاكا وفافا وبقية عشيرته وإخوانه، ورغم حزنه البادي إلا أنه كان نشيطًا مطيعًا منفذًا لكل ما يطلب منه من أوامر ومهمات، وكانت له هيئة حسنة وأسنان قوية بيضاء ما رأيت أجمل منها وكان صدره عريضًا لا يقل عن ثلاثة أشبار بأية حال من الأحوال، وربما أكثر، وكان كوكو عندما تأخذه دوامات الحزن والألم خلال وحشة الليل ويسرح ببصره بعيدًا وهو على سطح الناقلة، يشرع في صفير حاد ممتد كصفير طير من طيور الغابات، ويظل على تلك الحال وقتًا وكأنه مذهول أو أصابه مس من شيطان رجيم، ثم عقب ذلك يشرع في

غناء حزين مؤثر بلغة أهل جلدته، وكنت أقوم إليه فأربت على كتفه مواسيًا مؤاسيًا، وشيئًا فشيئًا علّمته فروض الصلاة، لكني أدركت أنه ليس من المتدينين ديانة حسنة بين أفراد الأورطة، وعندما دخلت النقالة لاسين المحيط الكبير والذي كان يطلق عليه قديمًا بحر الظلمات، ظل كوكو خائفًا مذعورًا زائغ النظرات وكانت عربيته تثير ضحكي أحيانًا فهو يقول تزعة بدلاً من تسعة، وفي إحدى المرات أخذت أحادثه وكان معنا بخيت بدروم، ففهمت منه أن لكوكو أختًا توءم كان يحبها كثيرًا، وكان لا يفارقها ولا تفارقه، لكنها سرقت هي الأخرى وبيعت بأرض لا يعرف طريقًا لها.

ثم إنه كان لكوكو رفيق صنو اسمه نينانده ضمن أفراد الأورطة على النقالة لاسين، وهو مثله من قبيلة تسمى الشير، وقد أخبرني بخيت أن الشير في مجملهم شعب وسيم الطلعة، طويل القامة، بهم لطف وبشاشة وكرم، وهم أهل رقص وغناء، وتجتمع نساؤهم مع رجالهم وأطفالهم لهذه الغاية في حفلات تحت ظلال الأشجار، ويعزف أولادهم المزمار ويرقص الجميع متمايلين ذات الشمال وذات اليمين مع هز الأرداف والصدور، لذلك فإن كوكو ونينانده كانا

ينتهزان كل فرصة للرقص وكان سوار الذهب ريس ومعلم المطبخ يشاركهم في ذلك حيناً وهو يضحك، وكنت أعجب منه وهو يصفهم بالعبيد وهو أسود مثلهم، وإن كان لونه أفتح منهم بعض الشيء، وفي ملامحه نعومة، فلما سألته قال لي أنه من أهل الشمال الذين تخالطت دماؤهم مع العرب، وأن قبائله تعتبر أهل الجنوب أدنى وأقل شأناً فضربت كفاً بكف وأنا أتعجب من ذلك.

وقد لاحظت أن كوكو يحب الإمساك بمسبحتي كثيرًا وهي مسبحة صنعت أحجارها الصغير من عنبر الحوت الجليل، وكان قد قدمها لي ابن عمتي الحاج خليل عند خروجي وارتحالي من الحُفن كتذكرة تدوم، ودليل محبة لا تبددها الأيام، وذات مرة أخذها مني كوكو ووضعها في عنقه كقلادة وراح يرقص بها، وعند الليل فاجأني إذ رغب في مقايضتي بها، وأظهر لي جلد نمر كامل لا عيب فيه، كان قد جلبه معه ضمن حاجياته وخبأه واقترح أن يكون سجادة لصلاتي وركوعي.

وقد عرفت من كوكو أثناء رحلتنا أن بلاده من أجــل بــلاد الأرض قاطبة وهم يزرعون السمسم والتبغ واللوبيــا إلـــى جانب البطيخ والقرع، وأن أشجارهم شامخة للغاية وتســكنها أنواع شتى من الأطيار مثل غاباتهم المعمورة بكــل أنــواع الوحوش والدبابات.

" وقد تعذب العديد من أفراد الأورطة، عذابات من نوع آخر لا حصر لها، غير مفارقة الأوطــان والنــأي عــن الأهــل والخلان، فالطعام كان في أغلب الأحيان رديئاً وطعمه غيــر مستحب، واليخنة التي كانت تقدم لنا كل يوم، لم تكــن بهــا لذاذة وعلى المرء أن يزدردها ازدراد البهيمة لعلفها، ولـــولا بعض الفواكه التي كانت تقدم لنا أو يبتاعهــا المــرء مــن السوق، لكان مات ونفق جوعًا، ناهيك عن الماء وقلّته وعدم استساغة طعمه، وكانت وخامة الأراضي الحارة التي نعسكر بها وفساد مناخها، من أكبر أسباب المضايقة للجميع، وعلـــى ذلك ورغم متانة بنية جنود الأورطة وكمال أجسامهم، وقــوة تحملهم، لم يكن يوجد من كل بلوك من بلوكات الأورطة أقل من ثلاثين أو أربعين مريضًا دومًا، النسبة الأكبر منهم تكون بالمستشفيات والبقيّة في الثكنات، حيث يذهب الــبعض إلـــى

المستشفى لحاجتهم الماسة لعلاج سـريع أو ليبقـوا تحـت الملاحظة، ويحصلوا على العلاج، وكانت معظم الإصـابات في هيئة إسهالات وحميات، ولـدغات حشـرات سـامة أو حيات، أو آفات أخرى عجيبة لم أر مثلها من قبل قط ".

" وفي ٢١ يونيه سنة ١٨٦٣ إفرنجي، أقيم فـي فيراكـروز قداس في أكبر كنائسها، حضـره القائـد العـام الفرنسـي، وكبارات المدينة وأعيانها ومثلـت فيـه جميـع السـلطات العسكرية وعهد إلى الأورطة السودانية المصرية مهمة القيام بالتشريفات، وقد حضرت إلى هذه الكنيسة الكبيرة ضمن من حضروا، فوجدت أنها شاهقة البنيان، مليئة بالزخارف العديدة المصنوعة من الجص، كما مُثل بداخلها تماثيل من الرخـام، لأنبياء ورسل المسيحية، وكانت جدران الكنيسة من الـداخل ملونة الزخارف بماء الذهب، وأوانيها من الفضة الخالصـة، أما المسيح عليه السلام، فقد صوروه وهو على الصليب، في هيئة ضخمة صبت من الذهب الخالص، كما كانـت هنـاك تصاوير على الجدران رسمت لأمه السيدة مـريم، وكـذلك لقصص الأنبياء، والسيد بين حوارييـه، ثـم جـاء القسـس والكهنة في ملابس طويلة حمراء كالعباءات وهـم يضـعون

على رؤوسهم قبّعات حمراء أيضًا وظلوا زمنًا طويلاً يرتلون ويقومون بأدعية قيل لي أنها باللاطينية وأن عامة الناس هنا لا يفهمونها، وكانت النساء تجلس في موضـــع مخصـــوص، غير ملازمات للرجال كما هي العادة في أفراحهم وتجمعاتهم وقد لاحظت أنهن يضعن على رؤوسهن طرحًا من النســيج الرقيق المشغول بأنساق بديعة لافتة، والحق أن النساء هنـــا على الأغلب هن على درجة من الحسن وتتراوح ألوانهن بين البياض الشاهق، والسمار الداكن، ولهن عيون مليحة آســرة النظرات ".

وقد تعجبت من كل تلك الأبهة، وكل ذلك الإســراف في بيت للعبادة، فلعل الخالق ما يريد من خلقــه إلا الطاعــة والعمل بما أمر به، وهو غني عن الذهب والفضة، وكل تلك الثياب الموشاة القشيب الذي لا معنى أو ضرورة لــه، وقــد قارنت ذلك بزي القساوسة والرهبان في بر مصـــر، الـــذين يميلون إلى التقشف ولا يخلعون السواد، وهم فقراء إلـــى الله في كل مسلك من مسلكهم، ثـــم إن الفرقـــة بعـــد أن انتهـــى القداس، تم استعراضها في أكبر ميـــادين المدينـــة، وكانـــت كعادتها غاية في الانضباط وحسن الملبس، وخصوصًا بعـــد

أن مُيزت بشارات صفراء توضع على الأذرع بناء على تعليمات المارشال فوريه، وكان قد كافأها قبل ذلك في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٦٣، بأن تؤلف منها كتيبة جنود برنجي نفر، فأُلِّفت من الأورطة كتيبة بلغ عددها ربع عدد الأورطة، كما أمر فوريه فمنح كل فرد من أفرادها ٦٥ سنتيمترًا يوميًا، وأن يميز من فيها كذلك بتلك الشارات الصفراء، وكان فوريه طالما أشاد بالأورطة المصرية

وبطولاتها وقد علمت من الصاغ ألماس أفندي أن هذا القائد قد أرسل إلى القائد العام للجيوش الفرنسية في مكسيكيا برقية أشاد فيها ببسالة الجنود المصريين السودانيين وقال له أنهم لم يبالوا بالنيران التي كانت تنصب عليهم من كل جانب أثناء القتال، وقد نجحوا في الانتصار على المكسيكيين وردوهم على أعقابهم على رغم أن هؤلاء الآخرين كانوا يزيدون عليهم في العدد تسع مرات ".

وقد قارنت ذلك الاحتفال الكبير الذي شهدته في الكنيسة والذي أقيم بسبب بعض المناسبات الوطنية، وقد قلب البلدة رأسًا على عقب، ببعض الاحتفالات التي شهدت جانبًا منها في مصر المحروسة كعيد وفاء النيل وتذكار يوم الجلوس

السنوي والمولد النبوي، فإن القاهرة كانـــت تصـــير قائمـــة قاعدة، تجتاز شوارعها المواكب الفخمة والعربات الفـــاخرة، والرايات والأشاير والطبول والزمور، وجماعات أصـــحاب الرتب والنياشين بملابســـهم الذهبيـــة الســـاطعة ونياشـــينهم المتلألئة يسيرون زرافات ووحدانًا، بينما تصدح الموســـيقى بأنغامها الشجية في كل حي من الأحياء، وتدوي المدافع دويًا متعاقبًا وتجري الاستعراضات الجميلة، وفي عيـــد الجلـــوس كان عشرة آلاف درويش يمرون بأشايرهم وراياتـــهم أمـــام شرفة القصر بعابدين بضجة وصخب غايـــة فـــي العجـــب، وكانت الصواريخ والألعاب النارية تشعل في الليـــل علـــى أبدع الأشكال وأتم الأنواع.

في مساء اليوم التالي لقراءتي أوراق عثمان حفني عن كوكو سودان، عدت إلى البيت بعد يوم حافل... ذهبت إلى المحكمة في الصباح مع عدد من زملائي للترافع في قضـــية تعـــذيب شاب بأحد أقسام البوليس كان متهمًا في قضية سرقة بالإكراه وثبت أنه مات بسبب التعذيب، ثم شاركت في ندوة تتنـــاول حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم، ومـــا إن

ولجت من باب الشقة حتى صاحت عمتي من المطبخ مستنكرة:

ــ يعني لازم تتسببي في إحراجي مع الناس؟. سألتك عن موضوع سواق أخت سميحة فوزي وأنت ضاربة طناش ولا على بالك، يعني يحصل شيء لو رفعت سماعة التليفون وسألت عنها وعن أحوالها واستفسرت منها عن المَوضوع؟

ــ طيب. طيب. عاوزة آكل الأول، لأني ميتة من الجوع.

ــ أسخن لك بامية ومكرونة، عاملة بامية بشاير تجنن.

ــ لأَّ. عاوزه شاي وجبنة رومي.

بعد العشاء كلمت أخت سميحة فوزي، قالت أن السواق السوداني الشغال معها لاجئ سياسي عند الأمم المتحدة، وأن الأمم المتحدة نازلة ضغط عليه حتى يهاجر لأمريكا وهو رافض.

دهشت للفكرة وتساءلت:

ــ يا سلام. هل الأمم المتحدة عاوزة تهجره لأمريكا فعلاً؟

ــ آه.

ــ غريبة ويا ترى لسبب معين.

ــ ولا أعرف وحياتك. أصل المشــكلة أن الأمــم المتحــدة أعطته جواز سفر وأوراق شخصية وهو من غيرهــا يبقــى وضعه غير قانوني في مصر. وبيني وبينك هو نافع لي جدًا، ويدي ورجلي في الرواح والمجيء، أصل السواقة في مصر صعبة ومخيفة، ولا ضابط أو رابط لها. تصــوري عشــت عشرين سنة في الخليج وكنت أسوق كل يــوم بالســاعات، وأطير بالعربية في كل مكان. لكن هنا في مصر مستحيل أن أفكر حتى في مجرد تدوير العربة مرة واحدة. لــو عملتهــا يركبني مائة عفريت. بعد ذلك بعدة أيام جائني بالمكتب شاب أسمر خجول، وقدم نفسه لي: علاء السنّاري من طرف مدام سميحة فوزي، تذكرت الموضوع على الفور وطلبــت منــه الجلوس وطلبت له عصير ليمون من نفيسة فراشة المكتــب، قال علاء وصدقٌ كبير يطل من عينيه ويملأ نبراته أنه سجن في السودان عدة سنوات، ثم هرب بعد ذلك إلى مصر عــن طريق العلاقات القبلية وأنه كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي السوداني، ثم إنه طلب اللجوء السياسي من الأمــم المتحــدة، وبات يحصل على وثيقة إثبات شخصية من هــذه المنظمــة

الدولية وكذلك مرتب لا يكفيه لذلك فهو يعمل سائقًا خصوصيًا لبعض الوقت و...

ــ طيب وما المطلوب مني يا أخ علاء؟

ــ لا أعرف ماذا أفعل، لكني لا أريد أن أتغرب بعيدًا عن أهلي وناسي. أنا في مصر قريب من أمي وإخوتي، وهم يأتون من السودان بين فترة وأخرى لزيارتي، والزول يعيش على أمل أن تنتهي المشاكل السياسية ويعود ذات يوم على بلده وأهله.

قلت وأنا أستمع إلى قصته بنبرات لا تخلو من تعجب:

ــ لكن يا علاء، ناس ياما، أمنيتها الهجرة إلى أمريكا والعيش فيها، ملايين الناس حلمهم الحياة في الجنة الأمريكية بسبب الرفاهية والغنى والثروة.

نظر علاء إليّ نظرة طويلة متشككة، ثم حاد عني بنظراته، وراح يثبتها على إعلان ضخم لنوع من مكيفات الهواء الأمريكية، يظهر على حائط البناية المقابلة لنا من شباك الغرفة، قال:

ــ لا. أنا لا أريد الذهاب إلى أمريكا وإعادة توطيني كما يقولون، واحد زول زميل لي، لاجئ سياسي من الجنوب،

وهو تحت حماية الأمم المتحدة أيضًا، تم ترحيله وتوطينه في أمريكا، ولكنهم بعد فترة قصيرة أرسلوه ليحارب في حرب الخليج والمسكين قتل عراقيين ومات، تصوري يا أستاذة؟

هتفت رغمًا عني:

ــ آه. عملوه كوكو سودان كباشي يعني!

ــ شنو؟

نطق بالسودانية وهو ينظر إليّ مندهشاً وقد أذهله الاسم.

قلت:

ــ آسفة كنت أكلم نفسي.

ثم إنه انصرف، بعد أن وعدته صادقة بالسعي لإيجاد حل لمشكلته الغريبة بطريقة أو بأخرى.

نزلت بعد انتهاء مقابلتي مع علاء السناري، وانصرافي من العمل بالمكتب إلى شوارع وسط البلد لشراء هدية مناسبة لزميلتي وصديقتي نهال الحسيني والتي تعمل معي في ذات المكتب. لقد زاملتني نهال طوال سنوات خمس منذ بداية اشتغالي بالمحاماة، وأخذت علاقتي بها تتوطد شيئًا فشيئًا، واكتشفت أنها نموذج خاص جدًا من النساء مقارنة بمن صادفتهن في حياتي، فهي تزوجت ذات يوم من زميل لها

بالجامعة، وأنجبت منه ولدين بعد قصة حب طويلة مؤثرة، إذ كان زوجها مسيحيًا وأسلم، لكن أهله رفضوا زواجه منهـــا، مثلما رفض أهلها زواجها منه لاختلاف الديانة، وعلى الرغم من أنه أسلم وكان سعيدًا معها، إلا أنه وعلى مـــا يبـــدو لـــم يحتمل قطيعة أهله بعد إسلامه فأدمن المخدرات وانتهى بـــه الأمر إلى أن يموت في مصحّة لعلاج الإدمـــان وهـــو لـــم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، إضافة إلـــى الولـــدين الصغيرين، فقد ترك الزوج المسكين لنهال تركة لا بأس بها من الديون ولوعات هائلة في القلب وعجزًا دائمًا عن التعامل مع أي رجل آخر يحل محله، ناهيك عن قطيعة مستديمة من أهله وأهلها.

عمومًا، اشتريت قرطًا فضيًا علـــى هيئـــة مفتـــاح الحيـــاة الفرعوني يليق بوجهها الجميل وكان سعره مناســبًا لـــدخلي المتواضع، خمسين جنيهًا فقط لا غير.

قلت وأنا أقدمه لها:

ــ فكري في الحياة وحاولي أن تعيشيها.

عندما عدت إلى البيت بعد أن دعوت نهال للجلوس قليلاً في جروبي واحتساء مشروب احتفالاً بعيـــد ميلادهـــا الحـــادي

والأربعين، شرعت في استكمال قراءة أوراق عثمان حُفني بعد أن قيّلت قليلاً، وجدت فضة أخرى تنتظرني، كانت في صفحة ٥٨ " وفي هذه البلدة تفرجت على إخراج الفضة، ورأيت كيف يطحنون الحجارة مثل التراب، ويجعلونها في الماء كالطين، وبعد ذلك يمزجون فيه الزيبق وطول النهار يحركونه مقدار عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا والزيبق يجمع الفضة ويلتصق بها، ومن بعد الأيام المذكورة يغسلونه في حوض مجلد بجلود البقر والماء يأخذ التراب ويوديه والفضة ترسخ ".

سرحت ببصري قليلاً، وتداعت إلى مخيلتي صورة دولاب الفضية بغرفة السفرة في بيت عمتي زمان... أكواب وفناجين زجاجية كثيرة داخل أرديتها الفضية المنقوشة والمحفورة بزخارف وتوريقات نباتية جميلة، ما كانت تخرج من أماكنها على أرفف الدولاب الخشبي الرائع المصنوعة بدقة وإتقان، إلا في مناسبات عزيزة، ذات طابع استعراضي، عندما كان يزور عمتي بعض " الناس المهمين " كما تقول أو بعض الرجال الذين كانت الفضة وأوانيها الساحرة، وسيلة من وسائل عمتي لإغوائهم على ما أظن.

بدأ عقلي تداعياته تحت عنوان فضة فرحت أغني بصـــوت خافت أغنية طالما رددتها وأنا صغيرة:

بس بس نو يا بس بس نو

دلوعة وعمال تحلو

قطط الناس جلاجلها حديد

وانت ف لبس الفضة وحيد

يا أبو عين سودا يا حارس الأودة

يا بس بس نو

وأغنية أخرى طالما كانت تغنيها لي عمتي وأنا صغيرة:

ساعدني وأساعدك

واكسّر سواعدك

سواعدك.. لولي.. لولي..

كما الشعر المحلولي

حليته حلة.. حلة..

كما شمروخ الفضة.

أما آخر التداعيات، فكانت من كتاب قرأته دونما اهتمام، كان أهداني إياه ذات مرة صديق يعمل في دار نشر خاصة، لاح

في أفق وقتها كمشروع علاقة عاطفية سرعان ما خبت، أو انتهت قبل أن تبدأ تقريبًا.

رحت أقلب في مكتبتي حتى عثرت على الكتاب، كان عن أمريكا اللاتينية وشعوبها، أخذت أتصفحه مستعيدة ما قرأته من قبل.

كان النظام الميتا آلة تسحق الهنود، وكان استخدام الزئبق لاستخلاص الفضة بالاتحاد الكيميائي يسمم بنفس درجة الغازات السامة في أحشاء الأرض أو أكثر، كان يسقط الشعر والأسنان ويبعث ارتجافات لا يمكن السيطرة عليها، وكان من يسممهم الزئبق يتمددون في الشوارع طالبين الإحسان، كانت ستة آلاف وخمسمائة شعلة تشتعل في الليل على منحدرات التل الغني وعلى ضوئها يجري تشغيل الفضة بالاستفادة بالريح التي يبعثها (سان أوغسطين المجيد) من السماء وبسبب دخان الأفران لم يعد ثمة زرع ولا بذار في مساحة نصف قطرها ستة فراسخ حول بوتوس ولم تكن الأبخرة أقل قسوة على أجساد الرجال ".

أما عثمان حفني، فقد كتب عن هنود الفضة ص ٦٣ ما يلي:

" وقبل أن تملك السبنيولية هذه البلاد ما كان أحد يعرف الإله الحقيقي، وكان البعض يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وما كان لهم أحرف، ولا كانوا يعرفون القراءة والكتابة، لكن لما يريدون أن يقدموا عرض حال إلى ملكهم، كانوا يصورون تصاوير في منديل على حسب شكاواهم، وكان في زمان فتح هذه البلاد ملكان أخوان، الواحد يسمى وداوليا، والآخر يسمى وسكارانيكا، وكان بينهما الحرب وكانت آلة سلاحهم وعدتهم القوس والسهام ورماح ومقاليع لقذف الحجارة، وما كان لهم مواش، أعني مثل أفراس وبغال وحمير ولا ثيران ولا بقر ولا غنم ولا دجاج سوى جنس حيوان شبه الجمل بقدر الحمار وحدبته في صدره يحملون عليه ويأكلون لحمه، لكنه لا يسافر بعيدًا، وكل يوم ما لا يزيد عن أربعة فراسخ لا غير، فلما يتعب ينام ويزبد ويتفل على أصحابه وهؤلاء الهنود ما كان يموت أحد منهم، إلا وكانوا يصنعون له قبرًا عاليًا علو ذراعين وطول ثلاثة أذرع، وكانوا يضعون في قبره آلة صنعته مع شربة من خمر الذرة.

بدأت أنتبه إلى متغيرات أخذت تعتريني منذ بداية قراءتي لأوراق عثمان حُفني الغريبة، في البداية أبدت عمتي ملاحظة

أو اثنتين لم أعرهما اهتمامًا واعتبرتهما ضمن سياق ملاحظاتها الدائمة لي، فما المشكلة في أن تقول " صار لك أسبوع وأنت خارجة داخلة في البنطلون البُني إياه والبلوزة البيج المكلحة، كأنك شغالة في معسكر جيش "، أو أن تقول " حطي لك حبة بودرة في خدودك وأنت لونك صار أصفر كالكركم وكأنك مريضة ".

لكن بمرور الوقت، لاحظت أنني بت متوترة معظم الوقت، لا مبالية بالأشياء حولي، ولا أبذل الجهد الذي كنت أبذله عادة في عملي بالمحاماة، أو أتحمس له كثيرًا مثلما كنت دومًا، ولاحظت أن شهيتي أخذت تضعف لتناول الطعام، مع نوبات اكتئاب تستمر عدة ساعات خلال اليوم، أعود بعدها لمزاجي المعتاد، ولاحظت أن ذلك يحدث عادة بعد قراءة الأوراق، وقد استشعرت أنها تجرني إلى أمور أعترف أنها لم تكن محط اهتمامي من قبل ومنها مسألة الهنود الحمر.

هل السبب في كل ذلك هو أنني لم أتوصل إلى خيط واضح يدلني على شخصية عثمان حُفني ومن يكون، اللهم إلا اسم القرية التي جاء منها؟

فكرت في ضرورة تسليم هذه الأوراق لشخص ما، شخص قد يهمه أمرها، وأستريح أنا منها، باحث أو مؤرخ متخصص، ولكن ماذا عن رودلفو؟، لقد وعدته بأن أبذل جهدًا للبحث عن عائلته الضائعة والتي لا يستطيع إليها سبيلاً... نعم لقد وعدته أن أبذل جهدي لفك طلاسم الأوراق والوصول إلى أصل وفصل عثمانو... لكن لماذا، لماذا هذا الوعد؟ ولماذا كل هذا الحماس من ناحيتي؟

لقد دفعني التفكير في رودلفو إلى التفكير في نفسي أيضًا، إن الفضول والرغبة في معرفة سر عثمان حُفني وحكايته لا يمكن أن يكونا الدافع الحقيقي وراء الاهتمام بهذه الأوراق.. هل رودلفو نفسه هو من اهتم به؟ لا أخفي أنني أعجبت بشكله وانجذبت إليه نوعًا ما، ولكن هل يمكن أن يكون اهتمامي بحكايته سببه أنني أبحث فيه عن ضالتي المنشودة؟. ولكن ما ضالتي المنشودة؟ أنا لا أعرف، لا أعرف على وجه اليقين ماذا أريد من هذا الرجل الذي أدخل في علاقة معه، إن كل ما أدركه حقًا هو أنني أريد رجلاً يملأ الفراغ الهائل الذي تركه أبي بعد وفاته، رجلاً آخر يمنحني طمأنينة مثلما كان يفعل أبي، فأنا أشعر أنني بلا معنى، وأنني بالونة

ضخمة ملونة تسير على قدمين وستنفجر عند أول شكة أو ملامسة لها، ولكن هل رودلفو هو الرجل الذي سوف يملأ هذا الفراغ، ويعوضني عن كل الرجال الآخرين الذين حاولت ودون جدوى أن أجد فيهم الملامح الجميلة لذلك الطاغية الناجح دومًا في امتلاكي منذ طفولتي وطوال حياتي وحتى بعد مماته، وأعطى لي صورة أبدية وتعريفًا للرجولة عندي؟. عمومًا لا أظن أن رودلفو لديه ما يحل محل أبي، وأنا لست واقعة في غرامه، ولكني متعاطفة معه وهناك أمر غامض يقربني إليه... ربما.

لقد عدت للتفكير مرة أخرى في مدى جدية رودلفو للوصول إلى أصول عائلته في مصر... طيب إذا كان هو جادًا إلى هذا الحد، فلماذا سكت كل هذه السنين ولماذا انتظر سنوات قبل أن يحمل أوراقه ويقدمها إلى أحد؟ عمومًا داخلني شعور بأنني غبية ولا أخلو من حماقة، فثمة أسئلة كان يجب أن تتبادر إلى ذهني منذ أن رأيته وتحادثنا في الطائرة، أليس من المعقول أن رودلفو يعمل لحساب جهة ما، وموضوع العائلة المفقود أثرها إنما هو سبب وعلة وغطاء، ومبرر لذلك؟!

تدافعت إلى رأسي صور من أفلام جاسوسية شتى، سبق أن شاهدتها في السينما والتليفزيون... شعرت بالخوف قليلاً، فربما وقعت في فخ خطير، أو بت أداة يستخدمها شخص غامض ضالع في مؤامرة كبرى لا أدري عنها شيئًا. رحت أحك رأسي بأناملي مستثيرة خلاياها الدهنية مما ترك لمعاناً على أظافري، كنت أجلس على سريري متربعة، منفوشة الشعر، أفكر بعصبية، وقبل أن أرد على عمتي الداخلة من البلكونة بالغسيل الناشف الملموم، والتي صاحت بمجرد أن رأتني: " مالك ناكشة شعرك وعاملة أمنا الغولة "، رن جرس التليفون ليجيئني صوت رودلفو:

ــ خالدة، أنا رودلفو... كيف أحوالك؟

ــ بخير... أهلاً... وأنت؟

ــ جيد... جيد... أريد أن أشكرك على كل شيء وعلى جولة القاهرة الجميلة، ولكن هل قرأت الأوراق؟

ــ بدأت أقرأها، وهي أوراق جدك عثمان حفني يا رودلفو، يبدو أنها مذكرات أو شيء من هذا القبيل.. وبلده اسمها الحُفن و...

ــ هفن.

ــ الحُفن ــ شددت على الحروف ــ وهي تقع في جنوب مصر وهي بلدة قديمة مشهورة بأن مارية القبطية كانت منها.

ــ ماري. آه.

ــ لا، ليست السيدة مريم العذراء.... بل مارية زوجة النبي محمد.

ــ وهل عرفت شيئًا آخر؟

ــ حتى الآن، أنا في الحقيقة لم أتوصل لمعلومات مفيدة، ولكن عليك الانتظار والصبر، حتى أنتهي من قراءة الأوراق كلها.

ــ خالدة... اسمعي، تعرفت على صديق مصري هنا، وحكيت له حكاية جدي والأوراق، وهو يقول أنه يستطيع الوصول إلى عائلة جدي بطريقة سريعة.

ــ أية طريقة؟! تساءلت بدهشة.

ــ يقول أنه يعرف ساحرًا ممتازًا في بلدته بمصر وهو لابد أن يوصلني إلى عائلتي، ولكنه يحتاج إلى شيء يخص جدي، وأنا فكرت أن تعطيه بعض الأوراق التي عندك، وسأرسل لك نقودًا في البنك لهذا السبب، لأن من سيقوم بهذه المهمة

والدته في مصر، فمن فضلك أعطيني رقم حسابك في البنك و...

ــ لم أتمالك نفسي، فقهقهت بصوت عالٍ في التليفــون ممــا جعله يرتبك على ما أظن لأنه تساءل:

ــ لماذا تضحكين؟. هل هناك خطأ ما؟!

ــ آسفة، لكن حكاية الساحر أضحكتني، لم أتصور أنك تفكر في السحرة!

ــ ولم لا؟. السحر علم، وهناك ظواهر مــا وراء الطبيعــة ترتبط به، لكن هذا موضوع يطول النقاش فيــه، ســأعطيك صديقي المصري وهو سيحدثك في هذا الموضوع.

تغير الصوت، وكذلك تغيرت الحروف والكلمات.

ــ أهلاً يا أبلة... معك أخوك عبــد الســميع الطيــب مــن البراجيل، والله يا أبله لو عندك قلم أعطيك تليفــون الحاجــة الوالدة وسعادتك تتصلي بها في البلد، وهي توصلك للشــيخ أبي المعالي، قولي لها الشيخ أبو المعالي وهي تعرف علــى طول وهو مكشوف عنه الحجاب ومجرَّب والحمد لله.

أخذني الفضول العارم فسألته:

ــ أنت مقيم في ألمانيا يا عبد السميع؟

ـ آي نعم يا أبلة من حوالي ثماني سنين مع ابن عمتي وناس كثير من مصر وشغالين في بيع وتوزيع الجرايد.
أخذت منه رقم تليفون الحاجة الوالدة، ودونته في مفكرة أضعها عادة بجانب التليفون احتياطيًا لمثل هذه المناسبات، ثم قلت له:

ـ طيب... هات رودلفو.

وعندما أعادني إلى صوت رودلفو مرة أخرى، قلت له بحزم:

ـ اسمع يا رودلفو... لا تعطي أي إنسان نقودًا ولا تتصرف بأي شكل من الأشكال حتى أنتهي من قراءة الأوراق كلها من فضلك وأقول لك عنها، ثم إنني ودعته ووضعت سماعة التليفون.

كثير من الناس الذين أعرفهم يعتقدون في السحر، وفي أمور مشابهة من هذا النوع، أناس جهلة لم يذهبوا إلى مدارس قط، وأناس متعلمون تعليمًا عاليًا راقيًا، عمتي على سبيل المثال تذهب إلى عرافين يقرءون الكف ويفتحون الكوتشينة ويقرءون الفنجان وهي تعتقد في السحر بشدة وطالما ضبطتها وهي تأخذ إيشاربًا من إيشارباتي، أو قميصًا من

قمصاني الداخلية، باعتبارهما من آثاري، مما يساعد السحرة على فك أعمال معمولة لي حالت دون ارتباطي بشخص ما وزواجي حتى الآن.

لي زملاء مرموقون في مكتب المحاماة، طالما وجدتهم يتناقشون في هذه الموضوعات... نهال الحسيني نفسها، بكل عقلانيتها، وتفكيرها المنطقي تقرأ باب حظك اليوم في الجريدة، وبين الحين والحين تطلب فنجانًا من القهوة تشربه ثم تدعو نفيسة مفتاح ساعية المكتب كي تقرأه لها، الوحيد الذي لم أسمعه مرة يتناقش في مثل هذه الأمور، هو أبي، بل كثيرًا ما سمعته يسخر من عمتي، عندما كانت تحكي له عن المفعول الناجع لعراف زارته أو عجوز فتحت لها الكوتشينة وقرأت طالعها، وها هو رودلفو الذي ظننت أنه مثقف ومتعلم كما يجب ويعيش منذ سنوات في ألمانيا، ناهيك عن همومه السياسية، يلجأ إلى السحرة ليساعدوه في الوصول إلى أصل جده، إذن المسألة ليست علمًا وجهلاً، أو غربًا وشرقًا فثمة أمر أعمق من هذا، ربما الناس بداخلها تعتقد أن واحدًا + واحد لا تساوي اثنين بالضرورة، فقد تكون ثلاثة أو أربعة، لكنهم لا يصرّحون بذلك، أو هم يرغبون في إثبات أن ١ +

١ لا تساوي ٢، وبطرق أخرى غير رياضية، ولكن لماذا؟، هل لأنهم غير مقتنعين بالعلم؟ لا أدري! هل لأنهم يشـــعرون بالنقص! أي أنهم ناقصون؟. ربما. ولكن لماذا هذا الشـــعور بالنقص؟!. لا أدري!

هل رودلفو لا يؤمن بأن ١ + ١ = ٢، أم أن رودلفو يشـــعر بأنه ناقص؟ هل هو ناقص لأنه لا يؤمن بالعلم أم هو ناقص لأنه لا يعرف شيئًا عن جده عثمان حفني؟.

مرة أخرى وجدتني أتساءل أسئلة أخرى من نوع: ما الحدود الفاصلة بين العلم والخرافة؟، أو بين الحقيقة والخيال، أو بين التاريخ والتأريخ، لقد كتب عثمان حفني في صفحة ٧٦:

" وكان بذلك الجبل نوع من الحشيش يشبه الخيزران الرفيع، فلما يمر عليه رجل أبيض عابر الطريق، يرتفع من الأرض مثل عود السهام، ويدقر الإنسان، ولا يشفى المصاب بهـــذه الدقرة إلا الموت، لكنه لا يدقر الهنود والعبيد ولا يضـــرهم، فلما رأيت هذا الحشيش وهو بعيد عشرة أذرع عن الـــدرب، إلا وارتفع وامتد يريد أن يجيء ويلدغ يني أفندي خازنـــدار المؤن لأن لونه أبيض وهو قبطي من شبرا النملـــة، فخـــرج العبد الأحمر الذي كان معنا وصاح عليه بلغة الحمر: دونـــك

يا كلب، فلما صاح عليه وقع على الأرض وأنا شاهدت ذلك بعيني مثلما شاهدت في ذلك الجبل تلك الأغصـــان الســـاوية المعدلة من غير ورق، وفي كل غصن ثلاث جوزات مثـــل القطن، فإذا انفتح جانب الجوزة، رأيت داخلها حمامة بيضاء بجناحيها ورجليها ومنقارها أحمر وعيونهـــا ســـود، فهـــذه يسمونها زهرة الروح القدس ".

ناديت على عمتي:

ــ عمتي... تعرفي أي حد يشوف الأثر.

ــ آه... ياما، تعالي شوفي فيلم طاقية الإخفاء محطوط على القناة الثالثة.

خطر لي فجأة وقبل أن أواصل القراءة العودة إلـــى كتـــاب أمريكا اللاتينية مرة أخرى لأقرأه قبل مواصـــلة مـــا كتبـــه عثمان حفني، فقد يساعدني ذلك على فهم ما هـــو موجـــود بالأوراق فعلاً.

بقيت أيامًا بعد مكالمة رودلفو أتساءل: كيف يعتقـــد إنسان متعلم واع وسياسي كرودلفو في مسألة السحر، وكيف ينشغل العديد من الناس بهذا الأمر، وقد قرأت فـــي إحـــدى الصحف اليومية خبرًا ذات مرة يشير إلـــى أن المصـــريين

أنفقوا في عام واحد ملايين الجنيهات على السحر والشعوذة والخرافة.

سألت نهال بينما كنا نزور زميلاً بالمستشفى أصيب في حادث عندما اصطدم الميكروباص الذي يقله من بلدته بني سويف إلى القاهرة بشاحنة ضخمة تحمل أطنانًا من عيدان القصب:

ــ هل تؤمنين بالسحر والعرافة؟. ألاحظ أن أناسًا كثيرين حولي يؤمنون بذلك!

زفرت نهال بمرارة وقالت:

ــ أظن أننا جميعًا كبشر في حاجة إلى بعض الأوهام، أوهام تدفعنا للحلم وتمنحنا القدرة على مواصلة الحياة، يظن البعض يا خالدة أن الموت هو اللغز، لكن صدقيني، الحياة هي اللغز الحقيقي، والسحر والشعوذة ليس أكثر من محاولات يائسة لفهم جانب من هذا اللغز.

عدت في المساء لأجلس في غرفتي محاولة فك أكبر لغز صادفته في حياتي، لغز عثمان حفني الذي وجدته قد كتب في الصفحة ٧٧:

" وفي هذه البلدة وبعض نواحيها يطلع القرمز، يلصق في بعض الأشجار ذات الورق السميك، فيلتصق مثل الدود في الورق ويصير مثل حب الجدري، ثم في حين بلوغه يستخرجونه ويضعونه في فرن حام، فييبس وينطفئ وبعد ذلك ييبسونه ".

ومن أغرب الحوادث التي صادفنها في هذه البلدة، أن بشير نحايل وهو نفر عادة، كان قد خرج أثناء الليل من خيمته بالبلوكات ليتنسم الهواء، ويبدو أنه جلس للاسترخاء فغلبه النوم، فإذا بخفاش الليل الكبير المتواجد بهذه النواحي يهجم عليه ويمص دمه ويستفرغه وهو يفصده ويتقيأ الدم، وبعد فترة أفاق بشير نحايل من نومته في حالة من الغثيان الكثير لكثرة الدم الذي خرج منه، وقد تسارع إليه زملاؤه بالعلاج بعد أن تبينوا حالته وسقوه شراب الكينا المقوي وهو ما يستخدم هنا بكثرة لمواجهة الملاريا، وقد شرح لنا بعض الهنود بعد أن عرفوا بما حدث، أن خفاش الليل عندما يهبط على الإنسان وهو نائم فإنه يهوِّي له بجناحيه ليطيب له النوم ويستغرق فيه فيقوم هو بمص دمه بمنتهى السلامة والهدوء ودون أن يشعر به ذلك المسكين ".

" وما حدث لبشير نحايل إنما هو قليل من حوادث أخرى كثيرة جرت لأفراد الأورطة في مكسيكيا وبلداتها أثناء الحرب، بسبب وخامة الجو وكثرة المستنقعات والوحلات والقرب من البحر المحيط، وكثرة الخلجان في تلك القرضة فالنفر كوكو كورنك كاد أن يموت ذات مرة بسبب شيء من جنس الدبابات أصغر حجمًا من البرغوث ويسمى في اللسان الهندي بنكثوا، فقد هاجمت هذه الدبيبة كوكو كورنك ذات مرة وهو غافل عنها وجازت في جسده وسرحت ومكثت فيه أربعة أو خمسة أيام دون أن يشعر، لكنه لاحظ بعد ذلك تورمات صغيرة قدر الحمصة تظهر في مواضع مختلفة على جلده، فعندما فحصوه عرفها الأطباء الأسبان للتو، ثم إنهم استدعوا أحد الهنود الذين على دراية بهذا الأمر وهو عجوز مُجرب، فجاء بإبرة محماة وراح يستخرج هذه الدبيبة من جسم كوكو كورنك بصنعة وصبر ودون أن يفقأها، ثم إنه يحطها على النار فكانت تطق مثل فرقوعة، وظل الهندي يبحث عنها في كل موضع من مواضع الورم حتى أجهز عليها جميعها وقد علمت أن هذه الدبيبة خطيرة جدًا لأنها إذا

لم تخرج بصنعة وفقئت ميتة على لحم الإنسان فإنه يتــورم ويموت بسبب ما فيها من سُم زعاف قاتل ".

رفعت رأسي عن الأوراق وقلت:

لن أذهب إلى سحرة وعرافين وكلام فارغ، رودلفــو يبدو كالغريق الذي يتعلق بقشة، إنه يبحث عن أيــة وسـيلة تقوده إلى أصوله المصرية ولكن إصراره هذا بــدا غريبًــا بالنسبة لي أيضًا، فما أهمية توصــله إلــى حقيقــة جــذوره المصرية الآن؟ ما أهمية أن يكون جده مصريًا أو صينيًا أو هنديًا أحمر أو غير أحمر؟ وجدتني أتســاءل بــدوري عــن أصولي، اكتشفت أنني ما فكرت يومًا بهذا السؤال، ولا أظن أن أحدًا ممن أعرفهم حولي فكر في هذا السؤال، أنا مصرية وخلاص، وأيًا كانت أصولي، مصرية والحمد لله.

ولكن لماذا تثيرني قضية أصول رودلفو وتأخذ مني كل هذا الاهتمام؟ ولماذا أعود كل ليلة إلــى هــذه الأوراق، كأنني علي بابا يعود إلى مغارتــه الســحرية ذات الكنــوز المخفية لأقرأ فيها بنهم، علني أجد ما يشفي غليلي؟ ولكن ما هو غليلي هنا؟ هل أبحث حقًا عن عثمان حفني جد رودلفــو

أم أن هناك أمرًا آخر بات يشدني ويفتح عيني على عالم آخر غريب لم أكن أراه من قبل؟.

لقد كنت في حالة دهشة بالغة، ومنذ أن أوغلت في قراءة الأوراق من فكرة جلب أناس من عمق الغابة الأفريقية وجعلهم جنود حرب يقاتلون عدوًا لا يعرفونه ولا ضغينة في الأصل بينه وبينهم، جنود يقاتلون حتى الموت، ليس في السودان حتى لأجل حاكم الخرطوم، وليس في مصر لأجل عيون الخديوِ، وليس في استانبول لأجل الحفاظ على الخلافة وبابها العالي، ولكن وياللعجب في المكسيك لأجل فرنسا ولأجل إمبراطورها نابليون الثالث.

شعرت أن القصة على رغم مأساويتها، إنما هي نوع من المهزلة، خصوصًا وأن هؤلاء كانوا عبيدًا، أي بشرًا تم صيدهم صيدًا كالحيوانات الكاسرة من عمق الغابة الأفريقية السوداء، بالقوة وقسرًا، ليتحولوا جبرًا إلى جنود يحارب بهم هنا وهناك، عدت لقراءة الأوراق مرة أخرى: الصفحة ٧٨.

" وكان ذلك بعد أسابيع قليلة من دخولنا مكسيكيا، وإقامتنا للحرب في فيراكروز، إذ إنه كانت تجيء نساء كثيرات من الهنديات والمولدات، بعضهن لم يتجاوز سنّ

الطفولة بعد، وذلك لخدمة الجنود الذين كانوا ينزلون بدورهم إلى بيوت الخنا المنتشرة في البلدة انتشارًا كبيرًا لقضاء أوطارهم، ورغم أنني طالما نصحتهم ووعظتهم بالابتعاد عن ذلك، إلا أن علامات المرض الإفرنجي بدأت بالظهور على بعضهم، وفي الساعة الثامنة صباحًا من يوم الثلاثاء الفائت جاء أطباء فرنساوية للكشف على جنود الأورطة، فتعرضوا لأعضاء التناسل منهم والشرج وباطن الفم، وتم عزل اثنين منهم عن باقي الأورطة لحين ترحيلهم حتى لا يتفشى الوباء بين الجميع ".

" ومن مساوئ الحرب بعيدًا عن الأوطان، أنه في الوطن كان يسمح عادة لعائلات الجنود بالانضمام إليهم وتتبعهم من معسكر إلى آخر طالما ظلت الآليات مقيمة فيه، ومن الطرائف في ذلك، أنه لما تم إيقاف ذلك لأسباب صحية، فقد كانت بعض الزوجات تتنكر في زي الرجال وتتبع زوجها أينما حل، وكذا كانت تفعل بعض من النساء الخواطئ المشتغلات بالمهنة ".

" ثم إنني فكرت في شراء جارية من سوق النخاسة بالبلدة، فلما ذهبت إلى ذلك السوق، وجدت أن معظم العبيد

من السود المجلوبين من بلدان السودان الأفريقي للعمل فـــي الفلاحة وما شابه، إضافة إلى العديد من الهنديات المولدات، ومعظمهن في حالة رثة من البداوة والفقر، وقارنـــت ذلـــك بتجارة العبيد وأسواقها عندنا في مصر، فشتان بين الاثنـــين، حيث إن لدينا بمصر جواري مجلوبين حسب العـــرض مـــن كافة الأصقاع الباردة والحارة، فلدينا البيض والصفر والحمر والسود، حيث الملاحة والحسن وجودة التربية ولطف السلوك والمعشر ".

" وبينما أنا عائد إلى بلوكات الآلاي وقد خاب أملـــي في انتقاء جارية، أبتعاها بحُرِّ مالي وتكون تحـــت تصـــرفي وأمري، إذ أنفت نفسي من كل ما رأيت بالسوق، وإذا بامرأة واقفة تبيع بعضًا من غلات الأرض الغريبة التـــي مـــا رأت عيني مثلها من قبل قط، فوقفت أتأمل ما لـــديها، وأشـــاريها، وكان ضمن ما تبيعه نبت أشبه بحبات الطماطم الصغيرة في استدارته ولونه، فتذوقت بعضًا منه، وحرت، إذ كان لا حلوًا ولا مرًا، ولم أتبين إن كان فاكهة أم خضارًا من خضراوات الأرض، وكانت عليه جبة كاسية من أوراق صفراء ذهبيـــة اللون جافة، فلما اشتريت بعضًا منه وتذوقته، طاب في فمي،

ووجدتني أرغب في صاحبته وقد أمعنت فيها النظر، فوجدتها مولدة مليحة بها من الهنديات الشعر المخملي الأسبل الغزير، والبشرة النحاسية الصقلية، أما عيناها فكانتا أميل إلى لون الكهرمان المطبوخ، وكانت عجيبة الحسن، ذات أسنان بيضاء ناصعة كنثر اللؤلؤ المخبوء، وكان لها صدر ونحر ما رأيت أفتى منهما وأنهد، فهاجت مشاعري، وتملكتني الطبيعة، وأخذت أطيل الوقوف عندها متعللاً بالشراء، ورحت آخذ وأعطي معها بكلام الإشارات ولغة التنهدات وتسبيل الجفون، ووضع الراحات على موضع القلب، وضم الشفاه، ثم إنني صرت أمر عليها بين الحين والحين، كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى ..."

" يا خبر أسود " ... صحت وأنا أشهق شهقة طويلة عالية لفتت انتباه عمتي التي كانت تجلس قبالتي تلفق كم فستانها المفتوق، وجعلتها تضطرب فصاحت بدورها وهي تدب على صدرها.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ... اتخضيت، خير.

ـ تصوري ... بقية الكلام طار. أهم كلام في الحكاية اختفى، يظهر أن جدة رودلفو عملت به تعويذة.

كانت عمتي تظن أن هذه الأوراق إنما هـي أوراق قضية هامة أشتغل عليها وأدرسها بجدية واهتمام، وأعطيها من وقتي وجهدي أكثر مما أعطي لأية قضية أخرى فلما سمعتني أقول ما قلته قالت:

ــ صلي على النبي واتهدي وبالراحة دوري هنا ولا هناك يمكن تلاقي الورقة واقعة منك تحت السرير أو محطوطة على الكومودينو، أصلك قاعدة تشتغلي مرة على المكتب ومرة وأنت ممددة على السرير وامبارح شفتك داخلة بالورق ذاته التواليت ولما الورق يضيع تشهقي وتصرخي ...عن نفسي أنا: كل ورقة وكل قصقوصة وكل حاجة تخصك ألاقيها واقعة، أرفعها وأحطها في مطرحها ولا شيء يمكن أن يضيع أبدًا.

ازددت غيظًا من كلام عمتي، وكنت متأكدة من رغبتها في افتعال قضية خلافية نتساجل فيها، ولما لم أكن غير مستعدة لذلك خلال هذه اللحظات ومغتاظة جدًا من جدة رودلفو وأحملها مسئولية ضياع أوراق قضية عثمان حفني الثمينة، فإنني آثرت الانسحاب من الحرب التي أعلنتها جدتي وآثرت القول:

ـ طيب. طيب.

وتجاهلت أن عمتي ليست فاهمة أي كلمة مما قلت وكما قالت منهية كلامها وبدأت أفكر: إذن قد تكون هذه جدة رودلفو الكبرى، الجدة التي تزوجت، أولم تتزوج من عثمان حفني، لكنها كانت سبب السلالة وأصلها، السلالة التي استمرت حتى رودلفو، وربما تكون هي المرأة التي عاش معها طويلاً حتى مات أو عاد إلى مصر وبقيت معها أوراقه لسبب من الأسباب ... شعرت بحنق بالغ لأن حكاية عثمان حفني بدت لي وكأنها على وشك الانتهاء أو أنني صرت قاب قوسين أو أدنى من معرفة تفاصيل حياة عثمان حفني وأصله وفصله، تنهدت بحرارة فبعد صفحة ثمانية وسبعين، كانت هناك اثنتا عشرة صفحة ناقصة بالتمام والكمال ربما احتوتها حكاية عثمان حُفني مع السيدة الهندية التي وقع في غرامها " وأهاجت مشاعره "، وما رأى " أنهد من نحرها وصدرها "، وظل يتسبب بالأسباب ليمر عليها، فالورقة التالية من الأوراق بعد ذلك كان رقمها التسعين.

" وما كادت الأورطة تستقر ببلاد المكسيك، حتى صدرت الأوامر لها وللكتائب الأجنبية وفرق المتطوعين من

المكسيكيين الفرنسيين بتطهير الأراضي الحارة من زمر اللصوص الذين كانوا يعيشون فيها فسادًا ".

" ولما حوصرت مدينة بويبلا وهي المدينة الثانية في الأهمية من مدن المكسيك من ٢٣ فبراير على ١٧ مايو الإفرنجي سنة ١٨٦٣، حيث سقطت واستسلم من حاميتها ٢٦ جنرالاً و ٩٠٠ ضابط و ١٢ ألف جندي، كان من اللازم الاحتفاظ بالمواصلات التي كان المكسيكيون يحاولون دومًا قطعها بين الساحل وهذه المدينة.

فكانت الأورطة السودانية المصرية أهم قوات صيانة المواصلات في الأراضي الحارة حتى قال القائد العام في فيراكروز عن جنودها أنه ليس لديه ما يبديه بشأنهم إلا الإطراء والثناء من كل الوجوه ".

تنهدت وقلت " ططظ فيهم يا عثمان يا حفني "، ثم تابعت قراءة السطور:

" ثم استخدم قسم من الذين وقعوا في الأسر في بويبلا في أشغال السكة الحديد، وهي الأشغال التي كان يجري العمل فيها بهمة زائدة في معظم البلدان التي صادفتها هنا، لأنها ألزم لنقل الأورطة والجنود، وأجدى من سائر ما

عداها من سبل النقل والحركة، فدعت الحالة إلى تكليف بلوك ونصف بلوك من الأورطة السودانية لحراستهم والذب عنهم، فقاموا بذلك خير قيام وتقدمت الأعمـال سـريعًا دون أيـة عرقلات أو خوف من هذه الناحية ".

تصاعدت أفكار كثيرة إلى رأسي وأنا أقرأ ما سطره عثمان حفني، وخطر ببالي في أثناء ذلك أن أعـود لكتـاب أمريكا اللاتينية مرة أخرى، فقد يساعدني ذلك على فهم مـا وراء السطور، فقد بدأت أنتبه لزمن العبيد وعالمهم، فعثمان حفني يتناول فكرة شراء جارية من السوق بمنتهى البساطة، ودونما أي خجل وهو الشيخ المعمم ويكتب عن عزوفه عـن شراء الجارية بسبب عدم وجود واحدة بالسـوق مطابقـة " للمواصفات المطلوبة"، أو تتناسب وذوقه ومزاجه النسـائي، ولاأكثر أنه يقارن بين البضاعة البشرية في هـذا السـوق، والبضاعة التي تعرض في أسواق القاهرة، تذكرت العبـارة الشهيرة التي كنا ندرسها في المدارس ونحن أطفـال والتـي قالها الخليفة عمر بن الخطـاب رضـي الله عنـه: " متـى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"، كمـا تـذكرت عبارة الزعيم أحمد عرابي: " لسنا عبيدًا لكم ولقـد ولـدتنا

أمهاتنا أحرارًا " لقد قالها للخـديو توفيـق، " يـاه "، قلـت، وقررت أن أقرأ كتابًا مفصلاً عن عرابي وثورته أحضره من إحدى المكتبات.

رغبت حينئذ في العودة إلى كتاب أمريكا اللاتينيـة وقراءة المزيد فيه، وبينما أخذت أتفحّص الكلمات والسـطور بعينيّ وأشدد بقلم رصاص على بعض الكلمـات والجمـل، وتوقفت طويلاً عند ما يلي:

" كانت حزم العبيد التي تنجو من الجوع والأمراض وتتكدس في السفن تعرض في الأسمال جلدًا على عظم فـي الميدان العام بعد أن تمر في استعراض عبر الشـوارع ذات الطراز الاستعماري على أنغام موسيقى القـرب، أمـا مـن يصلون إلى الكاريبي وقد بلغ منهم الإرهاق مبلغـه فـيمكن تسمينهم في مستودعات العبيد قبل جعلهم يلمعـون، وكـان الصاغة يقدمون أقفالاً وأطواقًا من الفضة للزنوج والكـلاب، وكانت السيدات الأنيقات تظهرن بين الناس مصحوبات بقرد تكسوه سترة مطرزة وطفل عبد وسـروال فضـفاض مـن الحرير ".

على الرغم من متاعب مهنة المحاماة التي ما أحببتها يومًا، وعلى رغم طبيعتها المُرهقة المستنفرة للجهد والطاقة العصبية، إلا أنها مهنة مثيرة، تجعل الإنسان يعيش تفاصيل كثيرة غريبة في الحياة والمجتمع، وفي مهنة المحاماة أتعلم كل يوم شيئًا جديدًا وأتعرف على عالم ما كنت أتخيل أنني سأعرفه من قبل، وحكاية الحاج أحمد هدوجة من الحكايات الغريبة التي صادفتها بالأمس خلال عملي في المكتب، فلقد جاء الحاج أحمد وكما قال من العاصمة النيجيرية لاجوس إلى القاهرة، وحضر إلى مكتبنا مع أخته " سمراء " المقيمة في مصر، طالبًا رفع قضية للقضاء المصري.

ـ خير يا حاج أحمد؟. تساءلت.

قالت أخته سمراء وهي في الحقيقة سوداء. أنها ورثت أموالاً هي وأحمد أخوها بعد وفاة والدتها المصرية، لكن أولاد عم أمها رفضوا تمكين أحمد من بقية التركة، لأن البيت الذي تركته أمها كإرث بعد وفاتها، يسكن فيه أولاد عم هذه الأم، و ...

ـ لكن وما المشكلة يا ست سمراء؟

ـ المشكلة أن أخي بدون جنسية مصرية، وأنا حاصلة على الجنسية المصرية لأني تزوجت من مصري، وأحمد ظل على جنسية والدنا النيجيري.

ـ يعني أمك وأم أحمد مصرية، والأب نيجيري؟

ـ آي نعم. لأن الوالد الله يرحمه، كان قد تعرف إلى خالي وهو جندي في الجيش المصري، ذهب للحرب في نيجيريا و ...

ـ آه. جاء للحرب في إقليم بيافرا، عندما كانت هناك مشاكل في نيجيريا أظن سنة ١٩٦٨، ثم جاء إلى مصر وتعرف على عائلة خالي محمد، ثم خطب أمي وتزوجها، وأنجب منها ثلاثة بعد أن أخذها إلى نيجيريا. الحاج أحمد وأنا وأختي سميرة، الله يرحمها، لكن أمي لم تسترح في كانو ورجعت من نيجيريا إلى مصر، وكان أبي يحضر إلى زيارتها بين فترة وأخرى، لأنه كان يتاجر ويأخذ بضائع كثيرة من مصر، وبعد فترة مات أبي وأمي وراءه، وأنا تزوجت وبقيت في مصر و ...

قاطعتها:

ـ هو كان فيه حرب بين الجيش المصري وبين نيجيريا فعلاً.

ـ لا، الحرب كانت بين قوات انفصالية وبين الحكومة النيجيرية، وفي نيجيريا استنجدوا بالمصريين لمساعدتهم، كان الموضوع كله أيام عبد الناصر والحكاية خلصت والحمد لله، ولكن شوفي يا أستاذة النصيب. بسبب الحرب، أمي تزوجت من أبي!، ها ها ها ...

ابتسم الحاج أحمد بدوره، وكأن كلامها أسعده فجأة، وبدا لي حينئذ بملابسة الأفريقية البيضاء الفضفاضة، وكأنه نيندا، أحد شخصيات عثمان حفني في أوراقه، بينما استأنفت سمراء:

ـ الحاج أحمد مبسوط وميسور، ولكن الحق حق، يعني لأنه بعيد، وغريب، يقوم أولاد عم أمي يأكلون حقه ويحرمونه من شرع ربنا.

بدا لي الأمر وكأن سمراء هي التي سوف تحصل على الورث ـ شرع ربنا ـ فالحاج أحمد " بعيد وغريب عني ".

قلت:

ــ لا عمومًا، نرفع عليهم قضية، ويكون خيرًا إن شاء الله، ثم إني طلبت منها أن تصور كافة المستندات التي تثبت حق الحاج أحمد في الميراث وتوافيني بها، وكذلك أوراق ومستخرجات رسمية أخرى لازمة لإثبات حقه في الملكية، ثم إني غادرت المكتب عند نهاية اليوم بعد انتهاء العمل، وبينما كنت أستعد لركوب مترو الأنفاق في طريقي إلى البيت، رحت أفكر في حكاية بيافرا هذه التي لم أقرأ عنها في كتاب مدرسي أو جريدة وأتساءل: هل حارب المصريون في أفريقيا أيضًا، أو حارب المصريون الأفريقيون في أفريقيا؟. لماذا؟. ما المشكلة؟، وما الفائدة؟. لا أعرف.

وعدت نفسي وأنا عائدة إلى البيت بأن أقرأ شيئًا عن هذا الموضوع، موضوع الجيش المصري في بيافرا، وتمنيت أن تكون عمتي قد عملت لي بسيسة الذرة التي وعدتني بخبزها قبل خروجي في الصباح.

لدى عمتي هواية اقتناء الأشياء القديمة، لذلك فهي لا تكف عن الذهاب إلى المزادات واللف والدوران بين الحين

والحين على محلات الأنتيكات، لتعود من ذلك بساعة حائط لا تحتاجها لأن الوقت لديها بجرعات كبيرة، أو بفازة أو شمعدان لا لزوم لهما على الإطلاق، عمومًا أنا لا أجد معنى لكل ذلك، لكني لا أرى فيه ضررًا أيضًا، وأقول: هي تسلي وقتها، عندها فراغ هائل، وصباح اليوم، الجمعة، دعتني للخروج معها والفرجة على سوق الجمعة، ولكني وكما تعودت مني دائمًا، رفضت واقترحت عليها أن تأخذ واحدة من صديقاتها، لكنها قالت:

ـ لا، أصل سوق الجمعة في الإمام، سأروح بعد صلاة الجمعة إن شاء الله، وهو سوق شعبي خالص، لكن فيه كل حاجة، عزيزة الشغالة قالت لي عليه أول امبارح وهي قاعدة تعمل ورق العنب، أصلها كانت لابسة خاتم فضة بفص مرجان، حلو خالص وقديم، فلما سألتها قالت أنه من سوق الإمام، وتصوري بخمسة جنيهات بس.

تثاءبت وقلت:

ـ يا عمتي يوم الجمعة هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي أقدر أحط جسمي وأستريح فيه بعيدًا عن المواصلات وقرفها، وزحمة وسط البلد، روحي مع عزيزة أحسن.

ـــ والنبي فكرة ... خلاص، بكرة لما تصل الصبح لتنفيض الشقة أتفق معها.

لكني فجأة تداركت، وقلت بحماس:

ـــ لا ... أحب أروح معك.

كانت صور سوق غريب، قد قفزت بمخيلتي للتو، صور سوق رسمه عثمان حفني في أوراقه، فقد أغلقت عيني قبل أن أنام على مشاهد من سوق هندي في مكسيكيا رآه منذ ما يقرب من قرن ونصف، وكله في أوراقه القديمة في صفحة ٩٦، وما تلاها:

" وكان هناك بائعون يبيعون اللوبيا والمريمية والخضراوات بأنواع وأصناف عديدة، لم أشهد مثلها من قبل في مصر، وكان يوجد من يبيع الدجاج والديوك الرومية، والأرانب البري منها والمستأنس، والغزلان ومنها نوع يسمى بيكونيا وهي كصورة الغزال ولكن بلا قرون، فهذا الحيوان وكما علمت بعد ذلك عندما تساءلت عنه، هو قوي أنيس له صوف ناعم كالحرير يصنعون منه البرانيط والطواقي التي تباع في السوق أيضًا وصوفه يشبه التفتيك أي الصوف الناعم، لكن لونه عسلي كلون الغزال، وفي بطن هذا الحيوان

يوجد حجر البازهر بين كليتيه فيخرجونه ويبيعونه بثمن غال لأنه نافع للسموم.

ثم هناك بائعو الفاكهة، وصنوفها تكون شتى، وكـذا أحجامها، وجل أنواعها غير معروفة لدينا في بـر مصـر، ومنها نوع عجيب اسمه السبوت يُؤتى به أخضر لم ينضـج بعد من على الأشجار، ثم إنه يُشترى من السوق على هيئته، ثم يلف في شيء من الخرق أو الهدوم ويترك علـى حالـه لفترة من الوقت، قد تطول إلى ثلاثة أو أربعة أيام، فينضـج ويؤكل ما بداخله بعد أن يصبح محمرًا طريًـا، وهـو لذيـذ للغاية، ومسهل للبطن الممسكة، وقد احتفظت بجانـب مـن بذوره، لإنباته عندما أعود إلى مصر إن شاء الله.

وتوجد بالسوق نساء هنديات يبعن الطعام المطبـوخ على طريقة هؤلاء الهنود العبيد، وكذا كعكات الدقيق والعسل والكرشة، إضافة إلى باعة الأواني الخزفية من كل نوع مـن أباريق المياه الكبيرة، إلى البرطمانات الصـغيرة، والعسـل والحلويات الشبيهة بحلويات مثل النوجا والملبن، وهناك من يبيع الورق المسمى بلغتهم " آمال "، وبعض قطع من سيقان

البوص ذات رائحة العنبر السائل وهي مليئة بالتبغ والمراهم الصفراء وأشياء أخرى من هذا القبيل تباع في مكان منفصل.

ولا أنسى باعة الكوتشيبل وبائعي الأعشاب، وبائعي الملح وصانعي السكاكين من حجر الصوان، وبائعات السمك والرجال الذين يبيعون كعكات صغيرة مكونة من نوع من الأعشاب يستخرجونه من البحيرة العظيمة بهذه الفرضة، وهو يتخثر ويكون نوعًا من الخبز له مذاق الجبن، ثم هناك من يبيع البلط المصنوعة من البرونز والنحاس والقصدير، وأواني وأباريق خشبية مطلية بألوان زاهية ".

بت متيقنة تمامًا أن عثمان حفني من الرجال الذي أثروا في تفكيري تأثيرًا كبيرًا، بالأحرى، لقد تعلمت منه الكثير مما كنت في الحقيقة أجهله، كان عثمان حفني بمثابة إشارة إلى طريق، لم أكن أظن يومًا أنني قد أسلكه، فكلما توغلت في قراءة أوراقه المجهولة الصفراء، أكتشف أنني لم أعرف يومًا ــ من قبل ــ ما كان يجب أن أعرفه، وأنني لم أتعلم شيئًا في المدارس والجامعة يستحق التوقف والتأمل، مثلما أتعلم من هذه الأوراق الآن، لقد اكتشفت أننا كمصريين، أو سودانيين، أو أفارقه، أو عرب، لم نكف يومًا،

وعبر التاريخ عن صناعة التاريخ، ولكننا نعرف أقل من القليل عن ذلك التاريخ الذي شكلناه وصنعناه بعرقنا ودمائنا وأرواحنا، إننا بالأحرى لا نعرف شيئًا عن أنفسنا ... رحت أستعرض في ذاكرتي مناهج، وبرامج التاريخ التي كانت مقررة منذ دخولي المدرسة وحتى تخرجي من الجامعة، لم تكن ــ وفي أفضل الأحوال ــ أكثر من عجالات وابتسارات وقشور هزيلة لا تؤول إلى مغزى، وفي العموم هي حقائق تم تزييفها وإخفاء أهم ما فيها من دلالات، نحن لم نعرف أو ندرس شيئًا كطلاب عن تجارة العبيد مثلاً، لم نعرف شيئًا عن العبيد إلا من الروايات والأفلام والمسلسلات الأمريكية الشهيرة، وكأن الفصل الأول، المفتتح الأساسي لهذه الصفحة السوداء المظلمة من تاريخ البشرية، لم يحدث هنا، هنا في أفريقيا التي نعيش فيها وننتمي إليها، وما تخيلنا يومًا أننا جزء منها كمصريين، إن عثمان حُفني يتحدث في صفحته عن رغبته في شراء جارية بمنتهى البساطة وكأن ذلك أمر عادي، ولكن ما قرأته في الصفحة السابعة عشرة بعد المائة، من هذه الأوراق بدا لي مستحقًا للتأمل والتفكير:

" ولقد أخبرني الملازم فرج عزازي، وهو الخبير العليم في شئون العسكرية، أن معظم العبيد السود المجلوبين إلى مصر زمن الباشا الكبير محمد علي، إنما كانوا لتغذية الجيش بالجند وعمل الأورط، فكان الآيان الواحد يتألف من هؤلاء العبيد من ثلاث أورط، والأورطة الواحدة ثمانية بلوكات.

وكذلك علمت منه أن العبيد السود، كانوا يعملون كذلك في مصانع البنادق والمدافع والبارود والحدادة، والمهمات التي أنشأها الباشا الكبير في القلعة، كما أن النسوةّ العبدات السوداوات كن يشتغلن بمدرسة الولادة، وكان الخصيان يعملون في خدمة وراحة حريم الأسرة الكبيرة للباشا، وقد ذكرني ذلك بما حكيته لألماس أفندي بينما كنا نتسامر ذات ليلة على ظهر المركب قبل وصولنا إلى فيراكروز بقليل عن حادث وقع لي يتعلق بذلك الأمر، فقد تم تطويش عبد صبي صغير في قرية زاوية الدير قرب أسيوط، وهي من القرى والأماكن المعروف عنها حرفة التطويش والجب، وكان الوقت خريفاً كما هو متبع لعمل مثل هذه العمليات التي اعتاد القساوسة الأقباط القيام بها لمهارتهم

فيها، فتم قطع موضع الذكورة لدى الغلام بموسي، وجـــرى صب الجرح بزيت مغلي كما هو متّبع، ووضعت الأنبوبة في الفتحة الباقية حتى لا ينسد مجرى البول، وبعد ذلك تم رشـــه بمسحوق الحناء، وجرى دفن الصبي حتى بطنه في الأرض لمدة يوم كامل بعد تقييده وربطه، غير أنه بعد مرور اليـــوم وبينما هم يخرجونه لدهنه بمرهم الطمـــي والزيـــت، تشـــنج الصبي ورفس واتضح أنه مصـــروع وقـــام بعـــض لســـانه وقطعه، وكنت قد شاهدت ذلك كله أثناء خروجي إلـــى هـــذه البلدة بأسيوط مع ابن عمتي الحاج خليل، إذ كان ثريًـــا مـــن أعيان الحُفن، ورغب في شراء فتى خصيًا يهديه لواحد مـــن أجلاء معارفه في طنطا، ليقوم على خدمة حريمه، وعنـــدما مات الصبي، كانت الخسارة كبيرة لمالكه، لأن المطوش يباع بسعر مرتفع يفوق كثيرًا ما يباع به العبد العادي لأن الغـــلام سليم البنية الذي لا يطوش يباع وحســـب حالتـــه مـــا بـــين أربعمائة إلى خمسمائة قرش، فمـــا بـــال بـــذلك المطـــوش المخصوص ".

" وكان الملازم فرج عزازي وكمـــا علمـــت منـــه، تقلاويًا في الأصل، نسبة إلى جبال تقلى الواقعة في الجنـــوب

الشرقي لمدينة الأبيض، وهي عاصمة إقلــيم كردفـــان، قـــد خطفه النخاسون وهو طفل صغير وباعوه في مدينة أســوان لرجل من قبائل الهوارة المشهورة في بر الصعيد كله، بمـــا لها من سطوة ونفوذ، وكان ذلك الهواري يقــيم فـــي بنـــي سويف، ثم إن الملازم فرج عزازي لما شب، انتظم في سلك الجندية في عهد المغفور له عباس باشا الأول، ومنح رتبـــة الملازم الثاني في إبان ولاية ولي النعم الحالي وجـــاء مـــع الأورطة إلى المكسيك، وقد لاحظت أثناء حديثنا عن العبيـــد وأحوالهم أنه صار حزينًا كئيبًا فاقدًا لبشاشته المعهودة، وقـــد قال لي أنه رغم مرور السنوات الطويلة وانشغاله بما ينشغل به الناس في هذا الدنيا من أمورها الفانية، إلا أنه لا يتشـــوق لأمر، ولا يتمنى أمنية، قدر تشوقه وتمنيه معرفـــة طريـــق أهله، والوصول إليهم بأي شكل من الأشكال، وقد قال لي أنه طالما أرسل المراسيل، ودفع من الأموال الكثير، حتى يتحقق ذلك الأمر دون جدوى، وأن ما يؤرقه أكثر هو أنه لم يعـــد يذكر وجه أمه أو ملامح أبيه، فقد خطف وهو فـــي حـــوالي الخامسة من عمره ودون سن الوعي والتفطن إلى الأشياء ".

قلت: ألم تقل له يا عثمان حفني، أن النخاسين ربمـــا خطفوا أمه وأباه، وربما بقية أهله كلهم أيضًا؟. ألم تقل له يا عثمان يا حفني كف عن البحث وعوضك علـــى الله فـــيمن فقدت من أحباب؟ ألم تعتذر له وتتأسف عن المخازي التـــي ارتكبت في حق الإنسانية بسبب جـــرائم العبوديـــة الداميـــة البشعة؟.

ليتني أعرف ما الذي قلته له، وليتك كنت قد كتبـــت شيئًا في هذا الأمر، أو لعلك كتبت ــ وإن كنـــت أظنـــك لا تستنكر العبودية ــ وقررت جدة رودلفو محوها من ذاكـــرة التاريخ على طريقتها الخاصة، عمومًا، كانت أوراق حفنـــي آخذة في التناقص وحكاياتها لا تنفك عن الترسب بأعمـــاقي ألمًا وحزنًا ودهشة من قسوة عالمنا وعنفه وتنـــوع أســـاليب الفتك بضحاياه من البشر، لم أكن وحتى هذا الحد من قراءتي لأوراق عثمان حفني، قد وجدت ما يشفي غليلي، ويوصـــلني بخيط ما حقيقي إلى قصته وأصله وفصله، وبت أكثر تشوقًا ــ ربما من رودلفو ــ لمعرفة نهاية هذه القصة، أو بالأحرى بدايتها، ولكن ما بتّ متيقنة منه تمامًا أن هـــذه الأوراق قـــد جعلتني كغصن شجرة هزته الريح ولن يعود بعد ذلك إلـــى

موضعه الأول أبدًا، كان ثمة شيء قد تغير فيّ، شيء جعل رأسي مسرحًا لعشرات الأسئلة، أسئلة شعرت أنها أسئلتي أنا وأنها تخصني شخصيًا في المقام الأول وليس رودلفو، فالموضوع لم يعد بالنسبة لي، مسألة شخص يبحث عن عائلته المفقودة، وجدّه البعيد، بل هو موضوع بشر وأناس أنتمي إليهم أنا الأخرى، انتماءً أكبر، بشر وأناس عاشوا وماتوا دون أن ينتبه أحد إلى حياتهم، أو يهتم بها، بكل ما حوته من آلام وآمال، ودموع حرب ... لم يختاروا يومًا دخولها أو المشاركة فيها، وأجبروا على أن يكونوا وقودها ونارها إجبارًا.

لم يعد يعنيني – وللحقيقة – موضوع عائلة رودلفو، وجده عثمان حفني، فلقد خبا حماسي له، فحتى لو توصلت إلى أي خيط في هذه الأوراق، إلى بقايا هذه العائلة ومكان وجودها في مصر الآن، فسيكون ذلك بمثابة تحصيل حاصل، والتزامًا بعهد قطعته مع نفسي لرودلفو. قررت أن أكتب رسالة لرودلفو عن الأوراق بعد الانتهاء من قراءتها كلها، وكان آخر ما قرأته هو صفحة ستة وستين حيث كتب عثمان حُفني:

" وكنا في شهر ديسمبر عندما أبلغت الأورطة في فيراكروز أن إمبراطورة المكسيك ستمر بالبلد وهي ذاهبة إلى بلدة اليقطان إحدى الولايات في مكسيكيا، فتأهبت الأورطة وتم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتأمينها عند مرورها بالبلدة، وعمل المراسم والتشريفات اللازمة لدى وصولها إلى الأراضي الحارة".

" وفي صبيحة ١٤ منه سافر حرس مؤلف من ثلاثين جنديًا من الأورطة السودانية المصرية بالقطار المخصوص الذي ركبه الحاكم والأعيان الذين وفدوا لمقابلة الإمبراطورة.

ولما وصلت إلى فيراكروز وجدتها امرأة كبيرة السن، ترتدي الملابس الإفرنجية الفضفاضة، وكانت غاية في الأبهة، تكسو جيدها بمجوهرات شتى، من ماس ولآلئ وياقوت وزمرد، ثم إن رجال مدفعية الأورطة أطلقوا لها مائة طلقة وطلقة مدفع إكرامًا لها، وتألف من الحامية المؤلفة من جنود الأورطة وجنود آخرين صفان من المحطة إلى القصر، وأقيم قره قول شرف من خمسين جنديًا من جنود الأورطة في القصر بقيادة يوزباشي وملازم.

ولما كانت الإمبراطورة ستسافر في صـــباح اليـــوم التالي من فيراكروز، فقد سافرت قبلها كوكبــة مــن جنـــود وضباط الأورطة لاستكشاف الطريق، ولتصطف على طول السكك الحديدية، ولم تلبث الإمبراطورة في اليقطـــان ســـوى بضعة أيام، ولدى إيابها، عمل لها جميـــع مـــا عمـــل مـــن التشريفات والاحتفالات عند مرورها بفيراكروز، فلما عادت إلى مكسيكو أعربت للإمبراطور مكسيميليان عـــن رضـــاها وحبورها لهندام الجنود السودانية وكفاءتهم العســـكرية التـــي حازت إعجاب جميع رجال البلاط وقد أخبرني بذلك ألمـــاس أفندي بنفسه، ثم إن الإمبراطور مكسيميليان، منح كل جندي من جنود الأورطة علاوة يومية على الراتب ٣٣,٣ سنتيم أي ما يساوي واحد قرش وخمسة عشر مليمًا مصريًا، كما تـــم الإنعام على بعض الضباط بالأوسمة ".

" وفي الثاني من شهر مارس ســـنة ١٨٦٥، نشـــبت معركة طاحنة بين الأورطة وبين المهاجمين مـــن الأعـــداء، وقد أسفرت المعركة عن مقتل مارشال الفرقة الفرنسي، وقد استبسل أثناء القتال الضاري الجنود والضـــباط المصـــريون السودانيون، وبعدها ونظرًا للبطولات الكبيرة التي قاموا بهـــا

لصد الهجوم، تم الإنعام بأوسمة عسكرية ونياشين على الأنباشي مرجان مطر والعساكر رمضان كوكو وعلي إدريس وأنجلو سودان ونوّه بأسمائهم ".

" وبعد ذلك بشهر، جاءتنا الأنباء من مصر المحروسة أن الخديوِ إسماعيل باشا، أنعم بالوسام المجيدي من الدرجة الرابعة على الماجور مارشال مكافأة له على عنايته بشئون الأورطة قبل أن يعلم بوفاته، كما ورد أمر عاجل إلى صاغ الأورطة تم قراءته علناً على الجميع، وقد أثنى فيه سمو الخديوِ على المسلك الحميد والمنهج السديد لضباط وجنود الفرقة وأنه يجري في مصر ترتيب ضباط وعساكر بدلاً منهم ليرسلوا إلى مكسيكيا، وأنه قريبًا إن شاء الله سيرسل ذلك البدل المذكور، ونعود نحن جميعًا إلى مصر المحروسة، حيث إن إقامتنا في مكسيكيا قد طالت، وأن غربتنا عن الوطن قد زادت. كما تلا نص الفرمان المتعلق بالنيشان المجيد المهدي من السلطان عبد المجيد والمنعم به على البكباشي مارشال الفرنسي، والمسكين لن يعرف بكل هذا ولن يستفيد منه بعد أن قتل، وهنا تمثلت قول الشاعر إذ يقول:

أتيت القبور فناديتهن   أيـــن المُعظـــم والمحتقر

وأين المُذل بسلطانه   وأين المُزكى إذا ما افتخر

" ومن محاسن الصدف أنه أثناء وجودنا ببلدة جومس بلاسيو مع الأورطة إذ كانت الأوامر قد صدرت بـــالتحرك إليها لمقاومة العصابات المغيرة عليها يومًا بعد آخر، وأثناء تجوالي في البلدة، وهي من البلدات الجميلة العامرة بالأشجار المثمرة والأبنية والقصور التي ما رأت عيني قط مثلها مـــن قبل، وبينما أنا أتجول، إذ وجدت رجلاً وسيمًا عربي الهيئـــة يتطلع في سحنتي ويتفرس، ثم إنه أقبل عليّ، وأقبلت عليـــه وقد أخذني الحنين ودفعتني روابط الدم دفعًا لمحادثته، فعرفت أن اسمه حضرة سليم أفندي الحاج، ثم إننا جلسنا في مشرب من مشارب البلدة نتحادث سويًا، فعرفت أنه من بلدة بحاجيـــا بلبنان وأنه عضو بكلوب روتاري، وأنه جاء إلى هذه الـــبلاد لزيارة بعض أقاربه الذين هاجروا إليها، وأنه يفكر جديًا في الهجرة إليها، والاشتغال بالتجارة فيها، خصوصـًــا بعـــد أن لمس بنفسه نجاح أقاربه هؤلاء وتحقيقهم للثراء، وكان ســـليم أفندي وكما أدركت من كلامه رجلاً قارئًا مطلعًا، في عقلـــه ذكاء واستنارة، فقال لي أن الفرنســـاوية سيخســـرون هـــذه

الحرب لا محالة، وأن هذه البلاد لابد وأن تقع تحت هيمنة الحكومة الأمريكانية، وقد قال لي أنه تفطن إلى ذلك لأنه جال في بلدان ومدن كثيرة في أمريكا اللاطينية، وأن الفرنساوية لا تضارع قوتهم، وكذلك الدول الأخرى قوة الأمريكان ودهاءهم، ثم إنه أخبرني، أنه بينما كان يتجول في شوارع البلدة في اليوم الفائت، شاهد على عتبة باب كنيسة من كنائسها كتابة البسملة بالعربية الواضحة وبخط نسخ جميل، وأنه حار فيما إذا كانت الكتابة قديمة أم هي كتابة جديدة، وأنه سأل بعضًا من أهل البلدة عنها، فقالوا له أن واحدًا من المصريين السودانيين الذين يعسكرون هنا هو الذي كتبها، وعندئذ تبسمت، وقلت له أني كاتبها منذ عدة أيام، ولا أدري لماذا، فالكنيسة جميلة البنيان ومزينة بزخارف بديعة، وربما اشتهيت أن تكون جامعًا للصلاة، فكتبت ما كتبته وأنا أدرك أن الأهالي لا يقرءون العربية ولن يفهموا معنى العبارة، وحتى إذا فهموا فهي باسم الله الرحمن الرحيم، وهذا أمر مقبول به في كل الملل والأديان ".

سامي، أخي الوحيد غير الشقيق، هو الأثر الوحيد الباقي لي من أمي، والدليل المستمر على زيجتها الأولى

الفاشلة قبل زواجها من أبي. عاش سامي مع أبيه بعد انفصال الأخير عن أمي، ثم سافر بصحبته إلى هولندا حيث عاش معظم سنوات حياته وتعلم، منذ سنوات قليلة، وبعد وفاة أبيه سعى للاتصال بي، وكان أبي وقتها ما يزال على قيد الحياة، والحقيقة فإن أبي رحب ترحيبًا شديدًا بعودة العلاقات المقطوعة تاريخيًا مع أخي واعتبرها حدثًا من أهم حوادث حياته على الإطلاق، لكن سامي، على رغم تكرار زياراته لنا، وهي زيارات قليلة على أية حال ولا تتم إلا عندما يأتي لزيارة عائلة أبيه في مصر، ظل شخصًا غريبًا بالنسبة إليّ، فأنا لم أمارس علاقة الأخوّة معه منذ صغري، بالأحرى لم أفهم ـــ شعوريًا على الأقل ـــ فكرة الأخ، وربما يعود السبب في ذلك أيضًا إلى أن سامي بدا لي وفي النهاية كواحد مصري ينقصه شيء مصري، لا أدري على وجه التحديد ما هو؟، رغم أن تربيته تبدو مصرية تقليدية، مع كل السنوات الطويلة التي عاشها مع أبيه في هولندا.

لكن عمومًا علاقتنا ظلت طيبة، فهو يرسل لي الرسائل ليطمئن على أحوالي بين الحين والحين وخصوصًا بعد وفاة أبي، كما ظل حريصًا على إرسال هدايا، ليس لي

فقط، ولكن لعمتي باعتبارها كل ما تبقى لي من عائلـــة فـــي مصر.

يوم الخميس الماضي، فوجئت برجل عجوز أســـمر يدخل مكتبي بصحبة شاب صغير وسيم، كان العجوز يبـــدو متبرمًا متضايقًا وهو يرتمي على أقرب كرسي التقاه بالقرب من باب المكتب، بينما رأيت الشاب يســـأل نفيســـة فراشـــة المكتب عني، فأدخلته الغرفة وهي تشير نـــاحيتي وبـــادرني الشاب قائلاً وهو يتقرب مني:

ـــ الأستاذة خالدة خالد، أنا محمد عبد السميع صديق لسامي أخو حضرتك، وصلت من حوالي أسبوع من هولندا، وسامي بخير ومعي رسائل وحاجات منه لحضرتك.

ـــ أهلاً وسهلاً ... قلت وأنا أقف وأمد يدي لتحيتـــه، وأشير عليه بعد ذلك بالجلوس ... ناولني حقيبة بلاســـتيكية بها " الحاجات " التي أرسلها سامي وقال وهو يجلس علـــى مضض:

ـــ سامي نازل على آخر الخريف إن شاء الله، كـــان عاوز ينزل مصر معي لكن ظروف شغله لم تسمح.

ـ آه. شغل الجامعة صعب جدًا. أنا شفت ظروفه بعيني، ووقته الضيق لما كنت هناك.

بدا لي وكأنه لا يرغب بالمزيد من الحوار إذ قال بسرعة:

ـ الحقيقة أنا مستعجل لأن وقتي محدود وضيق جدًا في القاهرة، لكن معي زوج عمتي وهو رجل كبير في السن، وسامي كان اقترح أنه يزورك ويعرض على حضرتك مشكلته لأنك على علاقة بمسائل حقوق الإنسان، وهو موجود بره، وأنا كنت حكيت حكايته لسامي من فترة، وهو قال لي لما تنزل مصر رُح مع زوج عمتك وقابل خالدة.

ـ خليه يتفضل، قلت وأنا أقف مرة أخرى لاستقبال العجوز الأسمر الذي أتى به في التو قريبه " المستعجل ".

وهكذا تعرفت على عبد النبي إدريس عن طريق أخي سامي المقيم في هولندا ويا للمفارقة، فالهدية الحقيقية التي أرسلها سامي لي هذه المرة مع صديقه محمد عبد السميع، لم تكن البلوزة الصوف الموهير اللبني، ولا زجاجة عطر روشان ولا الإيشارب الشيفون المشجر لعمتي، ولكن حكاية عبد النبي إدريس كانت الهدية الكبرى وواحدة من

أجمل الصدف ودواعي التوفيق التي صادفتها في حياتي خلال الشهور الأخيرة.

عبد النبي إدريس حكايته غريبة جدًا، فهو رجل عجوز، كان يعمل بمصلحة المساحة بالدقي منذ أربعينيات القرن الماضي، حتى أنهى مدة خدمته القانونية وبات يتقاضى معاشاً من الحكومة، وهو ميسور " والعيشة رضا والحمد لله "، وهو يرغب في رفع قضية على الحكومة لتعطيه جواز سفر، لأنها ترفض ذلك كما يقول، فهو يريد أن يذهب إلى السعودية ليرى ابنته الوحيدة، التي سافرت مع زوجها وتعيش هناك، ولأنها وعدته بأن يظل عندها حتى " يحج ويكمل أركان دينه كلها ".

ـ الله!؟ ولماذا ترفض الحكومة إعطاءك جواز سفر يا عم عبد النبي؟ قلت.

ـ كلام فارغ والله، قالوا لي أنت سوداني. روح السودان وهات جواز سفر ... تصوري.

قلت:

ـ الله، هو أنت سوداني ولا مصري؟

ـ أنا مصري طبعًا عشت هنا طول عمري، ولكن أمي ولدتني في الخرطوم، كانت في زيارة لأهلها ووضعتني هناك، لكن أنا مصري سوداني ولازم يعطوني جواز سفر. يعني أنا خدمت أربعين سنة في الحكومة في مصلحة المساحة، وفي الآخر يقولون لي في مصلحة الجوازات أنت سوداني. شهادة ميلادك في السودان ورُح هات جواز سفر من الخرطوم. يصح؟.

ـ طيب هل عندك أية أوراق تثبت أنك مصري؟

رد بعصبية وكأنه على وشك الانفجار:

ـ أوراق؟. أقول لك أني مصري. عندي بيت ملك مُسجل في الشهر العقاري، وعشت طول عمري هنا، ودخلت الجيش وحاربت في سنة ١٩٤٨ في فلسطين، وبعد انتهاء تجنيدي رجعت لمصلحة المساحة وتم تثبيتي بها، وقبلها كنت موظف ظهورات غير مثبت وحياتي كلها هنا، ومصر والسودان كانت عبارة عن بلد واحد، وجدي حارب مع الجيش المصري في المكسيك و ...

هتفت بابتهاج ودون أن أتمالك نفسي:

ـ في المكسيك؟. والله العظيم حارب في المكسيك؟

فوجئ الرجل برد فعلي، فتوقف عن الكلام ينظر لي مندهشًا، بينما راحت نهال زميلتي الجالسة على المكتب المجاور لمكتبي تضحك مما جعل الرجل يتساءل:

ــ حصل شيء يا أستاذه؟ مالكم؟.

ــ لا ... أبدًا لكنك قلت أن جدك حارب في المكسيك، من قال لك عن هذا الموضوع؟.

ــ الله ... أصلها حكاية طويلة ... طويلة، تنفع والله تحكى للعيال كما الحواديت.

ــ طيب. تعرف عنها أي شيء؟ سمعت عن الموضوع من أي قريب لك؟.

ابتسم عبد النبي إدريس بمرارة، شعرت أنه رجل دعكته الحياة بهمومها ومررته بمراراتها إذ قال:

ــ يا أستاذة جدي أنا كان الأميرالاي فرج الزيني بك، ولو قرأت في كتب التاريخ ستجدي أن اسمه مكتوب، ومسجل وقد خاض معارك مهمة سنة ١٨٦٥ هناك وأصيب خلالها بإصابات شديدة نظرًا لحماسته وبسالته في القتال، وكانوا وقتذاك ما زال يحمل رتبة ملازم وكان يقود مؤخرة الأورطة المصرية السودانية في المكسيك، وقد قام بخدمات

جليلة كثيرة للجيش، ولما عاد حصل علـــى رتبـــة اللـــواء، والفريق وقتل في واقعة الخرطوم بيد الدراويش فـــي مـــايو ١٨٨٥، وأنا حافظ تاريخ جدي كله لأن أمي عنـــدما مـــات جدي كان عمرها سنتين، وبعد وفاة والدتها تولـــت تربيتهـــا عمتها وهاجرت بها إلى كسلا بعد أن استولى الدراويش على جميع ممتلكات جدي " أبوها " وفي سنة ١٨٩٠ تقريبًا قامت عمة أمي ومعها ثلاثة من العبيد ودادة البنت التي هي أمـــي للسفر إلى مصر، فاعترضهم الأعـــراب والـــدراويش فـــي الطريق بين سنهيت وكسلا، وقتلوا عمة أمي المسكينة والعبيد الثلاثة وأخذوا البنت والدادة، ولكن يشاء الســـميع العلـــيم أن يتعرف على البنت والدادة بعض العســـاكر الـــذين تجنـــدوا باشبوزق بالطليان (لم أفهم معنى ذلك) فأخذوهما وقـــدموهما لحاكم سنهيت الذي أرسلهما إلى مصوع فسواكن فمصر، فلما حضرت أمي مصر كان القائمقام صالح بك حجـــازي حيًـــا يرزق فالتزم بها وتبناها وصارت أمي تعـــيش مـــع دادتهـــا بمنزله، وطلب لها من الحكومة أن تربط لها معاشًا تعيش به الطفلة التي هي أمي، وتعويضًـــا مناســـبًا أســـوة بالضـــباط والموظفين الصف والعساكر والباشبوزق، وكـــان الـــرد لا

معاش لها ولا تعويض لأن والدها أي جدي هو السبب في سقوط الخرطوم، تصوري يا أستاذة، يعني في الأول وفي الآخر ظلم من الحكومة، ولكن ربنا لا ينسى عباده المؤمنين أبدًا. يعني ربنا فتح عليها، وتزوجت وأنجبتني مع المرحومة أختي وأخي. لكن خلينا في موضوع الجواز. أنا عاوز أخلص من موضوع جواز السفر.

تنهدت وقلت:

ـ آه. خلينا نرجع لجواز السفر!

جلست لآكل طبق كشري بالدقة طبخته عمتي للعشاء، " أصلي بقى لي مدة يا خالدة ناسية الكشري والنهاردة خطر على بالي، قلت أعمله وخلاص. رغم أن طبخه غلبة على الفاضي ". كان لذيذًا بالفعل، قلت لها ودون أن أرفع عيني عن سطور كتاب رحت أقرأ فيه:

ـ تسلم يدك ولا غلبة على الفاضي ولا أية حاجة أبدًا. طالع ممتاز.

ثم تابعت القراءة:

" ولما وصل عرابي، تفقد علي بك فهمي فلم يجده وأخبره بعض الضباط أنه وزع آلاي الحرس داخل السراي

ومعه كمية وافرة من الذخيرة، وأنه على استعداد للدفاع عنها إذا مست الحاجة، فبعث إليه من فوره بالملازم محمد أفندي ليستدعيه، فحضر علي بك فهمي فسأله عرابي عن سبب جعله العسكر على أبواب السراي ومنافذها من الداخل، ولم يكن هذا اتفاقهم من قبل فطمأنه علي بك فهمي وقال له: " إن السياسة خداع "، أي أنه لم يفعل ذلك إلا لمخادعة الخديوِ وأنه باق على عهده، فطلب إليه عرابي أن يسحب آلايه من السراي ويأخذ مكانه في الميدان، ففعل. وأمر بخروج الآلاي من السراي، فخرج منها الجند جميعًا، واصطفوا إلى جانب إخوانهم في المكان المعين لهم من الدائرة، ثم تم ترتيب الآي المدفعية والفرسان والمشاة على شكل مربع، وجاء بعد ذلك الآلاي الثاني من قصر النيل يقوده بعض ضباطه وذلك لامتناع قائده وكبار ضباطه عن الاشتراك في الحركة، ثم جاء الآلاي الثالث قادمًا من طرة بقيادة عبد العال حلمي بك".

" إذًا " قلت لنفسي واستطردت: " فلقد كان هناك الآلاي السوداني أيضًا، الله ... الله، حتى في الثورة العرابية كان هناك الآلاي السوداني؟، تساءلت وأنا أفكر، هل ما حدث في المكسيك لجنود هذا الآلاي، كان سببًا في تمرده ورفضه

العبودية والاستمرار في التعامل مـــع الجنـــود الســـودانيين والمصريين كحد أدنى وأقل شأنًا من الضباط الأتـــراك؟، أو كما قال عرابي للخديوِ: لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا ولن نكـــون عبيدًا بعد اليوم ".

رفعت رأسي عن الكتاب ... كتاب الثورة العرابيـــة لعبد الرحمن الرافعي، وسألت عمتي وأنا أبلع خلطة العـــدس والأرز والمكرونة التي ملأت فمي: تعرفي أي شـــيء عـــن ثورة عرابي يا عمتي؟، هل تعرفي أن " الأورطة الســـودانية والتي عاد جنودها من المكسيك إلى الآلاي الســـوداني، قـــد شاركوا في ثورة عرابي ".

رفعت عمتي عيناها عن المراية التي كانـــت تتأمـــل وجهها فيها وتلتقط بعض الشعيرات النابتة في ذقنها وقالت:

ــ ثورة عرابي؟، ومن لم يسمع عن هوجة عرابي، وأنا صغيرة ياما سمعت عنها حكايات، تعرفي الحاجة خديجة سلفة بنت عمتي نجاح، أصلها من الشرقية من ميت رزينـــة بلد عرابي وتقرب له من بعيد حسب قولها وبيت أهله موجود لحد دا الوقت هناك.

قررت عمتي إعادة دهـــان الشـــقة " لأن الحيطـــان توسخت خالص، ولونها أصبح يقرف الكلب ". كنت أدرك أن عمتي تبحث عن قضية وسبب لتشغل نفسها. أظن أن هـــذه المرأة ستعيش حتى آخر يوم في حياتها تبحث عـــن قضـــية وهدف، لملء الفراغ الهائل الذي يمكن أن ينفجر بـــداخلها، فراغ مصنوع من السأم والملل وافتقاد بوصلة الوجود. قلت لها: " براحتك يا عمتي "، لكني سأذهب وأعيش مـــع نهـــال حتى تنتهي من موضوع البيـــاض وتوابعـــه، أو: " أول مـــا تنتهي من أودتي، أرجع ".

بالفعل وضعت بعضًا من ملابسي في حقيبة صغيرة وذهبت إلى نهال، تاركة عمتي واقعة في حيص بيص كمـــا يقال.

كنت قد قرأت ما تبقى من أوراق عثمان حُفنـــي إلا قليلاً أعترف أن عملية القراءة غير سلسة على الإطـــلاق، فالخط باهت، والتشكيل يكون معوقًا للقراءة (أحيانًـــا)، لـــم يكن فيها ما يشفي غليلي أو يقودني إلى ضالتي المنشـــودة. حسابات ومشتروات تخصه، كشف بمدخرات جمعهـــا مـــن راتبه وينوي الاحتفاظ بها حتى يعود إلى أهله في مصر، لا

شيء عن عائلته، ولا سيرة لخطابات أرسلها لهم في مصـــر مثلاً، لقد أتت جدة رودلفو على كل شيء، ويبدو أنها كانـــت تفضل الأوراق المحتوية على معلومات عائليـــة أكثـــر مـــن غيرها لتغذي بها نيران طقوسها السحرية وتجنني، حتى مـــا كتبه عن المرأة الهندية ظل ناقصًا، هل تزوجها؟، هل ظـــل على علاقة بها؟، هل عاد إلى مصر وتركها؟، لقد ظلت هذه أسئلة مفتوحة لانهاية لها بالنسبة لي من مسلســـل " عثمـــان حفني في المكسيك " الناقص وغير المكتمل، وحتـــى كوكـــو سودان كباشي، ضاع مني في نيران جدة رودلفو المستعرة، لكني في الصفحات الأخيرة الناقصة أيضًا وجـــدت عثمـــان حفني يكتب ما يلي:

" ولا أدري ما جرى بعد ذلك، إذ اشـــتد الضـــرب والقصف علينا من كل ناحية وكأن نيران جهنم فُتحت أبوابها جميعًا لنتلظى بحريقها، فجريت إلى أجمة من الآجام القريبة من محل الأورطة التي كانت قد أفاقت عنـــد هزيـــع الليـــل الأخير على ذلك الهجوم غير المتوقع، وصرت أعدو؛ وقـــد ساد الهرج والمرج، وبلغت الفوضى مبلغها، لا أعرف أميمن أنا، أم ميسر؟، ثم إني اختبأت خلف بعض الأشجار الكبيرة،

بعد أن جرح إصبعي جرحًا خفيفًا، ولا أدري أكان ذلك بسبب الضرب، أم بسبب قفزي وعدوي على الحشائش المشوكة والصبارات على أية حال، وربما لشدة الصدمة، رقدت على الأرض وقد سلّمت أمري لله، ويبدو أنني غفوت قليلاً، لأني تنبهت على صوت أنين وألم بالقرب مني، فوجدت امرأة هندية مصابة، تنزف بشدة وكأنها على وشك الموت، فقمت بخلع قميصي بسرعة، وربطت موضع الجرح منها، وكان في أسفل قدمها اليسرى، وبقيت ضاغطًا عليه، حتى توقف النزف ولاحت تباشير الصباح، وإذا أنا على هذا النحو، والجارية بالقرب مني، وإذ بجماعة من الهنود القتالين قد جاءوا على أحصنتهم وحوّطونا من كل ناحية شاهرين رماحهم في وجهي يبغون قتلي، ثم إنهم حملوا فتاتهم على ظهر أحد الخيول، واقتادوني أسيرًا معهم إلى حيث موضع عشيرتهم وقد توغلوا بي توغلاً كبيرًا في الغابة التي بدا لي أن اتسعاها لا حدود له ولا نهاية.

وكنت بالطبع لا أفهم لغتهم، ولا يفهمون لغتي، ثم إنهم قيدوني إلى جذع شجرة، وخرج جمعهم كله من مضارب خيامهم العالية غريبة الشكل للفرجة على هيأتي ...

وقلت لنفسي أنني مائت لا محالة، وقد يشعلنون النار بي حيًا، ليأكلونني بعد ذلك، فقرأت الفاتحة وتلوت الشهادتين على روحي، ورحت أقرأ في سري ما تيسر من آيات القرآن الكريم، ويبدو أنهم لاحظوا ذلك، فوقفوا ينظرون إليّ بدهشة ويتطلعون إلى هيئتي وملابسي الغريبة عنهم، بينما كانوا يرتدون من الجلود ما يغطي أجسادهم إلى قليلاً، وكانت النساء عاريات الصدور والأجساد لا يتغطى منهن غير مواضع العفة، دونما خفر أو خجل، لكنهم ويا للعجب، سرعان ما فكوا أسري بعد قليل، وأطلقوا سراحي، فقد جاءوا إليّ بالفتاة الهندية، التي فهمت منها وبإشارات الكلام معها أنها أوضحت لهم حقيقة ما فعلته معها، وكيف أنقذتها من الموت.

ثم إنهم أقبلوا عليّ مهنئين، وجاء كبيرهم وقد وضع على رأسه تاجًا من ريش الطيور الملون الطويل وضمني إليه، وأتى بالإشارات المفيدة والدالة على أنه بات يهش ويبش في وجهي ويرحب بي، ثم إنهم دعوني إلى وليمة طعام وتركوني والجارية في موضع مخصوص من الخيمة بمفردنا، وقد تعجبت منها كثيرًا وهي تخرج من موضع

المكان الذي نحن فيه، بعضًا من الحجارة البيضاء، وقد تبين لي أنها ليست سوى حبات در، راحت تضـعها فـي فمهـا وتقرشها قرشاً وتبتلعها، ثم إنها ناولتني بعضها لأفعل مثلهـا وأنا في غاية العجب والاندهاش، وكأن ذلك ــ كما فهمت ــ دليل محبة ومودة ثم إنني ...".

الوحيدة من أقارب نهال، التي ما زالت على علاقـة بها، ابنة عم لأمها، امرأة عجوز ثرية، كانـت أيـام ثـورة ١٩١٩، وكما تقول نهال من " الجيل الجديد " مـن النسـاء، الذي حارب وكافح كي يتعلم، وقد حاربت طنط نوران أهلها وإخوتها الذكور السبعة كي تدخل الجامعة، وكان هـذا مـن الأحداث الكبرى في عائلتها، فأبوها كان ضابطًا في البوليس وأمها ابنة أحد شيوخ الأزهر وعمدة قرية في المنيا، ونجحت في النهاية في دخول كلية الآداب، وسافرت عدة مرات إلـى أوروبا مع زوجها الطبيب، وهي منفتحة العقل ولم تغضـب عندما تزوجت نهال من الرجل الذي أحبتـه مثلمـا فعلـت أسرتها وبقية أبناء العائلة.

أصرت نهال أثناء إقامتي عندها، أن أذهـب معهـا وولديها لتلبية دعوة طنط نوران لوجبة عشاء. ذهبت، آخـر

الأمر، رغم إصراري على رفض مصاحبة نهال في هذه الزيارة: " ومالي يا بنتي ومال بنت عم أمك، ثم إنني وكما تعرفين لا أحب الرسيمات والناس المدهونة بالنشا "، ضحكت نهال وقالت: " لا نشا ولا حاجة، لو عرفتِ طنط نوران، أفكار كثيرة في دماغك ستختلف ... تعالي والله هي ست بسيطة ولطيفة ".

ذهبنا إلى طنط نوران: سيدة بيضاء سمينة نوعًا، بها ملامح من جمال قديم، بيتها، بمنطقة الكوربة بمصر الجديدة، واسع بحيطان عالية ومعمار أوشك على الانقراض بالقاهرة، أثاث البيت معمول بفن وذوق أيام زمان، غرفة السفرة التي جلسنا لنتعشى بها من خشب جوز محفور يندر وجود مثلها الآن، وهناك طباخ عجوز وخادمة تضاهيه في العمر، يقدمون لنا أكلات مصرية مميزة، وفجأة خطر لي أن أداعب عم منجلي الطبّاخ:

ــ أنت من أي بلد يا عم منجلي في السودان؟

ــ وادي حلفا ... رد باقتضاب.

ــ وأنت في مصر من زمن؟ قلت.

وردت طنط نوران هذه المرة:

ـــ أنا طلعت لقيته في البيت من صغري هو ومـــال.

(تقصد الشغالة). أما عم منجلي فقال:

ـــ في مصر أبًا عن جد. أصل أبويَ كان في الجيش وجدي كان في الجيش زمان وطلعت لقيت أهلي كلهم هنا.

ـــ آه. قلت وأضفت:

ـــ يعني جدك حارب في الجيش؟

ـــ آه. حارب زمان، سافر وراح فرنسا وعنده نيشان كبير.

ـــ وأنت شفت جدك؟ تساءلت.

ـــ لا. أبويَ حكى لي عنه، وهو كـــان أســدًا فـــي الحرب، مرة ضرب بسنكة واحد في الحرب ورفعــه فــوق والسنكة غارزة فيه وشاله لفوق ... أبوي حكى لي.

ـــ ومن أعطاه النيشان؟

ـــ آه. هو راح باريس بعد الحرب و ...

ـــ الحرب في أي بلد؟ ... قاطعته.

ـــ الحرب في بلد بعيد خالص، ولمـــا خلصـــت راح باريس مع كل العساكر وأخذوا نياشين مـــن الملـــك هنـــاك وانبسطوا خالص وكان أبويَ عنده نيشان، وهو قال لي أنهم

أخذوا من الفلوس كثيرًا وكان النيشان " لاكروادي لاليجيون دونور ".

ضحكت وقلت له:

ــ يا سلام. أنت بتعرف فرنساوي؟

ردت طنط نوران:

ــ ومال كمان عارفة لها كم كلمة فرنساوي، لكن منجلي يعرف فرنساوي أحسن منها لأنه وهو صغير دخل لمدة ثلاث سنين مدرسة فرنساوي، أصل حكايته حكاية، أبوه كان ميسورًا وكان في الجيش، ولكن صرف فلوسه كلها في موضوع غريب خالص. واحد صاحبه اتفق معاه على أن يحفروا وينقبوا على الآثار في الصحراء وظنوا أن الذهب والكنوز مدفونة فيه ولكن نقبهم طلع على شونة. منجلي وإخوته اشتغلوا بعد ما افتقر أبوهم وأنا طلعت لقيته هنا.

سكت منجلي قليلاً، ثم أضاف وكأنه يتذكر شيئًا.

ــ شوف. جدي شاف الخديوِ في مصر بعد شوفته لملك فرنسا وهو وصل إسكندرية مع الجيش، وراحوا قصر التين وعملوا حفلة كبيرة للضباط والعساكر هناك، وكانت هيصة كبيرة ومزيكة وزمر وطبل، وأكل ملوكي. يا سلام.

قلت بدوري:

ــ يا سلام!

وأوشكت أن أمطره بمزيد من الأسئلة وأنا أفكر: هل يمكن أن يكون لديه معلومات عن عثمان حُفني من خلال جده؟. يبدو أن جده ولابد ــ وفقًا لما قاله ــ قد حارب في المكسيك، وإلا لماذا ذهب إلى فرنسا ليكرموه ويحصل على نيشان؟. في أية الحروب يمكن أن تكرم فرنسا جنديًا مصريًا أو سودانيًا؟، حرب ١٩٤٨، أم حرب ١٩٦٧، أم في الحرب الضارية التي شنتها على مصر بعد تأميم قناة السويس بالاشتراك مع إنجلترا وإسرائيل عام ١٩٥٦، لا، إنها بالضرورة حرب الأورطة المصرية في المكسيك.

كان عم منجلي ما زال واقفًا يحمل بيديه طبقين ممتلئين بكفتة داود باشا، وبدا كمن يتذكر أمرًا إذ قال فجأة:

ــ أصل العساكر السودان هاربوا من هتت كتير خالص ومن زمان جوّه وبره وهتى مع المهدي، وهتى في بلاد بعيدة خالص.

ــ آه. قلت. وأضاف:

ــ وهتى مع عرابي باشا.

ــ سمعت هكايات كتيرة من أبويا. كنت عارفه كلــه وحافظه كويس، لكن نسيت. نسيت وأبوي مات من ثلاثــين سنة بعد أن رجع وادي حلفا و...

يبدو أن صبر طنط نوران قد نفد لأنها قالت وهــي تنفخ:

ــ حط الأكل يا منجلي قبل ما يبرد. وهــات معــك علبة الفوار. محطوطة عندك على الكومودينو جــوه جنــب السرير.

رحت أبتلع الطعام: كفتة داود باشــا ومحشــي ورق عنب وكوسا، وبامية في الفرن، وأنا أفكر في أولئك الــذين حاربوا مع جيش عرابي، وأولئك الذين حاربوا مع الإنجليــز ضد المهدي، قلت لنفسي لابد أن أبحث عنهم، سأسأل واحدًا من المتخصصين في التاريخ، فربما يقودني إلى حكايتهم ...

تنبهت بينما كنت أحادث نفسي على صــوت نهــال وهي تقول لي:

ــ مالك. سهمتِ وسكتِ. كلي وخليكِ هنا.

ذات صباح وبينما كنت في طريقــي إلــى مكتــب المحاماة، فكرت في القيام بمغامرة مجنونة، أن أحمل نفســي

في صباح مماثل وأركب القطار إلى سوهاج وأذهب بنفسي إلى الحفن وأسأل عن عائلة رودلفو، عائلة عثمان حفني، وأحل المشكلة بنفسي، فلابد وأن يكون هناك من يعرف عائلة عثمان حفني، ولابد أن تكون له بقايا عائلة، ذرية وأحفاد وأقارب ما في هذا المكان.

نهال التي أفضيت لها بما أنتويه ضحكت وقهقهت، وأنا أشرح لها السيناريوهات المتخيلة لما سوف يحدث لي في بلدة عثمان حفني.

سيناريو أول: أسأل عن العمدة وأذهب إلى بيته مباشرة وأطلب منه مساعدتي في التوصل إلى حقيقة الرجل.

سيناريو ٢: الذهاب إلى قسم الشرطة وشرح المشكلة لرئيس القسم أو النقطة هو لابد أن يقوم باتصالاته ويساعدني.

سيناريو ٣: أن أسأل بعض الأهالي بنفسي مباشرة ولابد وأن يعرف عائلته شخص ما من العجائز بطريقة أو بأخرى، أو يكون سمع عنه مثلاً.

نهال علقت وهي ما زالت تضحك، بأنني أفكر وكأنني لا أعيش في هذا البلد ولا أعرف عنها شيئًا " هل

تتصوري أنهم في قسم الشرطة سيستقبلونك بـالورود، أو أن العمدة سيأخذك بالحضن على دق الطبل والمزمـار؟، هـل البوليس فاضٍ لحضرتك ولصاحبك رودلفـو؟. سـبحان الله، يعني لو لم تكوني محامية وفاهمة البلد ومعايشـة لظـروف الشغل في البوليس، كنت فهمتك، شيء غريب! عارفة: أبسط سؤال يمكن أن يوجّه لك هو وما علاقتك أنت بالموضـوع؟. طيّب ولو أخبرتيهم بموضوع الأوراق، ربما أخـذوها منـكِ واعتبروها مخطوطات قديمة أثرية ولا يجوز لكِ الاستحواذ عليها، والحقيقة يا بنتي، ربما يعتبرونك هبلة أو مجنونة في أفضل الأحوال، يعني الحكاية كلهـا مرفوضـة علـى كـل المستويات، لا تدخلي نفسك فـي مشـاكل ووجـع دمـاغ، خلاص. أنتِ قرأتِ الأوراق كلها، قولي لرودلفو عما وجدتيه فيها من معلومات واتركيه يتصرف.

ـ لكني وعدته بأن أبحث له عـن جـدّه وأصـوله العائلية.

ـ يعني أنتِ مغسلة وضامنة جنة. والله أنا حاسة أن موضوع جده سبوبة. يظهر أنـك واقعـة فـي غـرام الأخ رودلفو.

وضحكت بخبث.

ـ لن أرد على كلام من هذا النوع لأنك سيئة الظن، ولكن لم لا، هو ظريف، أنا مستلطفاه، ولكن لا أقول وقعت في غرامه. نهال ... الموضوع أصبح عندي أكبر مما تتصوري، أنا أريد أن أعرف كل شيء عن عُثمان حفني وعما حدث له. أنا متعاطفة معه جدًا ومتعاطفة أكثر مع كل عساكر الأورطة وأولهم كوكو سودان.

ـ مَن؟! ... تساءلت بدهشة.

ـ كوكو سودان كباشي. أنت لا تعرفينه، لكني أحببته جدًا، ومتعاطفة معه إنسانيًا، أريد أن أفعل شيئًا بهذه الأوراق، شيئًا أهم من رودلفو ومن الغرام الذي تظنينه. طيب ما رأيك أن أذهب إلى سجلات القلعة، أو مصلحة الأحوال المدنية في العباسية، وأكشف عن أصله بالكمبيوتر؟

ردّت بلهجة مهنية جادة:

ـ لازم أن يكون عندك الاسم الثلاثي وأنت لا تعرفين عنه أي شيء غير اسمه الأول فقط.

لن أذهب إلى الحفن، ولن أبحث عن عثمان وعائلته ولكني قررت كتابة خطاب طويل إلى رودلفو:

" عزيزي رودلفو

هل تعرف كوكو سودان كباشي، هل سمعت يومًا عنه، أو عن خليفة سودان وبخيت خميس، وكودي الفيل وسعير الجيش، ومرسال سودان، ونوركومي، وأنجلو حبيب الله وغيرهم من أنفار الأورطة التي سافر معها جدك إلى المكسيك، ليحاربوا مع فرنسا، ضد أعدائها من المكسيكيين هناك. لقد كان كوكو سودان فتىً يافعًا يلهو ذات صباح في الغابة الاستوائية الرائعة، ربما كان يحادث العصافير أو يختبئ من نمر كاسر، أو يمتطي ظهر فيل متكاسل أثناء مروره بالغابة، وفجأة انقضت عليه عصابة حقيقية من الوحوش في هيئة بشر متمدنين، كانوا في الحقيقة جماعة من تجار العبيد، يعملون لصالح والي مصر، أو ملك الإنجليز، أو إمبراطور فرنسا، لا يهم كل ذلك، المهم هو أنهم سرقوا كوكو وصادوه صيدًا، أبعدوه عن عالمه، ليبيعوه في سوق النخاسة وسرعان ما ألقى به بعد ذلك في عالم غريب، عالم قاس ومتوحش، يعمل لحساب عصابة مسلحة، مهمتها إبقاء جماعة أو عصابة أخرى بشعة في سلطتها ونفوذها، لم تكن

هذه العصابة المسلحة غير الجيش الذي أجبر كوكو وغيره من زملائه على أن يكونوا جنودًا وأنفارًا فيه.

لقد سُفِّر كوكو إلى المكسيك مع رجال آخرين كثيرين، وكان معهم جدك الشيخ عثمان لمباركتهم والصلاة بهم والترحم عليهم بعد موتهم، وهناك ذهب الجميع إلى أرض لم تطأها أقدامهم من قبل ولم يذهبوا إليها طلبًا للرزق أو فرارًا من جريمة ارتكبوها، ولكنهم ذهبوا ليحاربوا مع عبيد آخرين، من الجزائر، وعبيد من جزر الأنتيل، ويكونوا وقودًا لحرب قذرة، لأجل أن يحصل ملك فرنسا على مزيد من نبيذه الفاخر في كأسه الكريستالي ويتمكن من مصّ دماء عبيد آخرين لن تغيب آثار دمائهم المسفوحة عن أطباقه وأوانيه الفضية أثناء الطعام، ولكي تتمختر امرأته وأمثالها في أثوابها الحريرية الفضفاضة.

أنت لا تعرف كوكو سودان وأمثاله، لا تعرف حكايتهم الحقيقية، مثلما كنت أنا لا أعرفها من قبل، فشكرًا لك لأنك قدتني، دون أن تدري لمعرفتهم ... لقد كان بحثك عن جدك يا رودلفو هو الخيط الأول الذي قادني إلى قضيتهم، وهو المفتاح الذي فتحت به عالمًا سحريًا غامضًا لم

أكن أعرفه من قبل، لقد قرأت أوراق جدك كلها، ولم أعرف من هو ولا يوجد في الأوراق ما يـدلني علـى بقائـه فـي المكسيك أو عودته مرة أخرى إلى مصر، ولكن، وجدت فيها ما دلني وقادني إلى معرفة الكثير عن العالم الذي أعيش فيه ... هل قلت لك مرة أنني بت أنتمي إلى واحدة من جمعيات حقوق الإنسان في مصر؟ لا أدري، على أية حال فقـد بـت أتشكك في جدوى الانتماء لواحدة من هذه الجمعيـات، فمـا الذي تفعله، أو بالأحرى ما جدوى الذي تفعله في هذا العـالم الوحشي الذي نحياه، أشعر الآن، وبعد قراءتي لأوراق جدك، كم هو ضئيل ما تفعله هذه الجمعيات، وكم هو محدود مقارنة بما قرأته في هذه الأوراق من ظلـم صـارخ ولا إنسـانية فاضحة.

الآن يا رودلفو بدت لي قضية محمد عبـد الحفـيظ بركات، قضية باهتة، لا تستحق كل ذلك الحماس الذي أوليته لها ذات يوم مقارنة بقضية كوكو سودان وزملائه ... آسفة، أنت لا تعرف قصة محمد عبد الحفيظ بركات لكني سأسردها عليك ذات يوم إن قدر لنا الالتقاء مرة أخرى.

بدأت أشعر منذ شهور طويلة، ولأول مرة، براحـــة داخلية عميقة، ونوع من السكينة وبرغبة حقيقية في النـــوم، كما بدت شهيتي للطعام تزداد مرة أخرى.

كنت قد غادرت الإقامة الإجبارية في بيـــت نهـــال، وعدت إلى بيتي مرة ثانية، بعد قضاء أسبوعين ممتعين معها ومع ولديها ــ غاية في الشقاوة والظرف ــ وكانت عمتي قد أعلنت لي تليفونيًا أنها انتهت تمامًا من أعمال الطلاء، " وكل شيء رجع مكانه والشقة صارت زي الفل، وتعالي يا حضرة البرنسيسة وبطلي الدلع الماسخ ".

استقبلتني عمتي بترحاب ومفاجأة، فقد غيرت لـــون شعرها إلى البني الداكن، أثنيت على ذوقها الرفيع هذه المرة: " خليك في البني الغامق على طول يا عمتي لأنه حلو عليكِ ويمشي مع لون عينيكِ ويناسب سنك ".

تمددت في سريري بسعادة حقيقية، وفرحت بنظافـــة الحيطان وإشراقها باللون الأبيض سن الفيل، ورحت أمتطى وأتثاءب كجرو مبتل خرج لتوه من الماء وقبع في الصـــباح يتمشى. نمت بسرعة، وكنت لم أنم جيدًا في اليوم الفائـــت إذ سهرت مع نهال وولديها.

نلعب الكوتشينة: الكومي، والشايب وشلّح، وكنت قبل أن أنعس أفكر في كوكو سودان وعثمان حفني، والخطـــاب الذي سطرته لرودلفو، والهنود، وجمعية حقــوق الإنســـان، والعالم الغريب القاسي الذي أعيش فيه، وسرعان ما غلبنــــي النوم لأرى فيما يرى الحالم، بأني داخل محكمة من المحاكم التي أدور عليها أثنـــاء علمـــي. لا أدري، أكانـــت محكمـــة الاستئناف العالي، أو مجمع العباسية، أم محكمـــة عابـــدين. كنت جالسة مع زملائي ننتظر دورنا في الرول، كنت قلقـــة وعصبية، أجز على أسناني حينًا وأعض شفتي حينًا آخـــر، بينما زميلي يقرأ في مجلة ميكي وأنا أترجاه " وحياتك يا سيد أعطني صفحة واحدة أسلي نفسي بها وأرجعها لـــك تـــاني " لكنه كان يفرض بعناد طفولي أغاظني، وعندما جاء دورنـــا ودخلت إلى قاعة المحكمة حيث تنظر قضيتنا، فوجئت بكوكو سودان يترأس منصة القضاء وحوله مجموعة من العســـاكر السودانيين، يرتدون الزي ذاته: البزَات الأنيقة ذات الياقـــات القصيرة والأزرار المصطفة، والغريب أننـــي لاحظـــت أن كوكو وكان قد بدا عاريًا تمامًا اللهم إلا من قطعة مـــن جلـــد النمر تستر عورته وقد فتح أزرار روب القضاء الأسود عن

آخرها، كما كان هناك عصفوران ملونان غاية في الروعة يقف كل واحد منهما على كتف من كتفيه، أما رأسه فقد تغطى بتاج من زهور النرجس الأبيض البديع.

فوجئت بأن حاجب المحكمة هو محمد عبد الحفيظ بركات، كما رأيته عندما جاء أول مرة لننظر مشكلته ونرفع له قضيته، الأنف الضخم والعينان الواسعتان المدهوشتان. مفاجأتي الكبرى كان عثمان حفني شخصيًا، فقد بدا لي شيخًا جليلاً، طويلاً داكن اللون، حلو القسمات وقد جلس مرتديا كامل زيه الديني: العمامة البيضاء على رأسه، والجبة والكاكولا على جسده.

ثم إنه تم النداء على المتهمين، وإذا بي أرى شخصًا أجنبيًا، سمعت من يقول أنه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، وكان يحمل كأسًا كريستاليًا ضخمًا من النبيذ في يده، بينما تراصت في أصابعه الممسكة بالكأس عدة خواتم ضخمة من الفضة، وكان يرتدي بزة حمراء فاقعة موشاة بشراشيب ذهبية لامعة عند الأكتاف، وفي أعقابه دخل بقية المتهمين في قفص الاتهام، الخديوِ سعيد والخديوِ إسماعيل (عرفتهما فورًا لأني كثيرًا ما رأيت صورتيهما منذ صغري في الكتب

المدرسية وفي متحف قصر الجوهرة بالقلعة) ومـــا إن تـــم إغلاق القفص على الثلاثة، حتى بدءوا يلعبون لعبـــة طالمـــا لعبتها مع أبي وعمتي عندما كنت صغيرة، لعبـــة اســـمها " صلح "، فكان أحدنا يقف وخلفه بقية اللاعبين، ويمد يده ليقوم واحد من الآخرين بضربه عليها بلطف، وعلى الواقف فـــي الأمام أن يكتشف بنفسه ودون أن يستدير مـــن الـــذي قـــام بضربه.

عندما تم النداء على ممثل النيابة، فوجئـــت بشـــاب فلاح يرتدي ملابس الجيش، يتقدم إلى موقعة بالمنصة، كـــان شديد الشبه بأبي، لدرجة أن قلبي أخذ في الخفقان بمجرد أن رأيته، وتمالكت نفسي حتى لا أجري إليه وأحتضنه، وعندما صار في موقعه ليترافع، بدأ خطابه بحماس شـــديد، وقـــال كلامًا إنشائيًّا كثيرًا طالما تعودت عليه في قاعات المحـــاكم، مما دفعني لأن أغفو للحظات ولكني تنبهت عنـــدما وجدتـــه يقول:

" وفي اليمن أيضًا تم الزج بأبنـــاء مصـــر الأبـــرار ليكونوا وقودًا لحرب لا ناقة لهم ولا جمل فيهـــا، وليمـــوت الآلاف منهم هناك، ولقد كنت أحد ضحايا هذه الحرب حتـــى

بصوا. ثم إنه رفع ساقه اليسرى أمام جميع الحضور وشمر عنها بنطاله، فتطلعت إلى تلك الساق مثلما تطلع الجميع، واكتشف أنها ساق ماعز ليس إلا.

واستمر ممثل النيابة في مرافعته قائلاً:

" وهؤلاء المجرمون جميعًا يجب ألا تأخذنا بهم رحمة أو شفقة، أو نظن أنهم الذين يلعبون الصلح للمتعة وتزجية الوقت، لا. فهؤلاء إنما هم وحوش قتلة. انظروا إلى ذلك الذي يعب النبيذ منتشيًا (أشار إلى نابليون الثالث)، إنه في الحقيقة أفاق مغرور، طالما رغب في التباهي داخل المحافل الدولية وراح يبحث له عن Prestige بين أمثاله من خلال تحقيق انتصارات على حساب آلاف الأبرياء، ويدفعهم إلى الموت دفعًا على نحو لا إنسانية ولا رحمة، ثم ذلك السعيد (يقصد الخديوِ سعيد) الذي ما فكر يومًا في أبناء شعبه المسكين، الشعب الذي حمله الأمانة ولم يصنها ولم يتمثل القول الكريم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ". ثم ذلك السمين التافه، محب الظهور والفشخرة، والذي أسال دماء أبناء الوطن وسفحها أمولاً تحت أقدام أوجيني عشيقته دون أن يحسب حساب أولئك البسطاء الذين ماتوا من الفقر

والجوع والتعب عندما حفروا قناة السويس من أمثال محمد عبد الحفيظ بركات (وهنا صاح محمد عبد الحفيظ: خدامك ومحسوبك يا سعادة الباشا). أجل أقول محمد عبد الحفيظ بركات وأمثاله من الملايين أبناء هذا الشعب العظيم يا حضرات القضاة، إنني أطالب باسم الشعب وباسم العدل وباسم كل الشرائع السماوية الإنسانية الكبرى التي ما مثلها وما وعاها ذلك المغرور القابع في القفص (أشار إلى نابليون الثالث)، والذي لم يعمل يوما حتى حسابًا لمبادئ الثورة الفرنسية العظيمة في العدل والإخاء والمساواة، أطالب بتوقيع أقصى العقوبات عليه، وعلى هذين المستهترين اللذين يلعبان معه الآن " صلح "، غير عابئين بغضب الجموع وغير محترمين لوقار المحكمة، وتوقها لتحقيق العدل الذي هو شريعة السماء قبل أن يكون شريعة الأرض.

ثم أعلن رئيس المحكمة بعد انتهاء ممثل النيابة من مرافعته، رفع الجلسة لمدة عشر دقائق للمداولة، على أن تستأنف بعد ذلك للنطق بالحكم.

خرجت من القاعة مع زملائي خلال الاستراحة لنشرب شيئًا ونتداول بدورنا فيما حدث، وفي هذه الأثناء

جاءت نهال وهي تضع عمة كبيرة على رأسها، جعلتني لا أتمالك نفسي من الضحك، وكانت تحتسي القهوة وقالت أن جمعية " نصرة الحق الإنساني " التي أنتمي إليها، ستقيم ندوة في فندق المريديان مساء اليوم " موضوعها حق المواطن في أكل القثاء المحلولة "، وأن ذلك سيعقبه مولد كبير في الفندق بمناسبة مرور سنة وربع على تأسيس الجمعية " ولازم تحضري يا خالدة، تصوري جابوا سبعة خرفان وعجل وعاملين فتة بلحمة، وسيتم خلال المولد تزويج ثلاثة من أبناء رئيس الجمعية على ثلاثة من بنات رئيس جمعية حقوق إنسان أخرى "

قلت: سيدي يا سيدي، ربنا يهني سعيد بسعيدة، لكني لن أحضر فقد قرفت من كلام جمعيات حقوق الإنسان الفارغ، فهو لا يجيب ولا يودي. روحي أنت لوحدك.

عدنا للقاعة مرة أخرى، فصاح محمد عبد الحفيظ بركات: محكمة، وبعدها اندفع محامي الدفاع عن المتهمين في كلامه، ويالدهشتي كان شخصًا سمينًا ذا وجه أحمر منتفخ ويرتدي ملابس مهرج سيرك وعلى أكتافه سبليتان ذهبية بشرابات وكأنه ملك، فهمست لنهال من هذا، وكانت تجلس

بجانبي، فقالت في بهدوء: ألا تعرفينـــه، إنـــه الأرشـــيدوق مكسميليان حاكم النمسا، همست لها مرة أخرى وما علاقتـــه بهذه المحكمة، فضحكت بصـــوت عـــال حتـــى أن رئـــيس المحكمة كوكو سودان خبط على المنصة بالشاكوش وقـــال: هش كله يسكت، وإلا كله يخرج بـــره وأنـــا أزعـــل منـــه، واستمرت نهال تهمس في أذني بصوت خفيض " كـــان هـــو ونابليون الثالث حلفاء في الحرب ".

بدأ مكسيميليان مرافعته عن المتهمين بالاعتذار لأنه كان منشغلاً بحفل استقبال وأن الفالس كان رائعًـــا وعزفـــوا الدانوب الأزرق لشتراوس والأوركسترا كانـــت أكثـــر مـــن ممتازة، ثم إنه أخرج من جيبه منديلاً أحمر كبيـــرًا وكأنـــه سيصارع الثيران، وبدأ في البكاء وهو يقـــول: والله حـــرام تعملوا في جيبي كده. نابيلون عزيزي إيـــاك تزعـــل. كلـــه سيكون بخير إن شاء الله. لكن كل المشكلة أنت قاعد تلعـــب مع ناس بزرميط، ابعد عنهم لأنهم هم سبب المشكلة. أصلهم بربريان. أرجوكم اتركوا صديقي. اتركوا حليفـــي. كوكـــو سودان، أنت أسود بربري، غير متحضـــر. أنـــت لازم أن تكون عبدًا خادمًا لنا. كوكو سودان أنت لازم تموت لأجـــل

نابليون ولأجل مكسيميليان ولأجل كل رجل أبـــيض يعـــيش مبسوط ومستريح. كوكو سودان كل واحد مثلك لازم ينتهـــي من الدنيا. وأنا ونابليون وناس لونهم أبيض يكونـــون فيهـــا وبس. مفهوم. كوكو سودان ... أنت ...

فوجئت بمن يهزني هزًا عميقًا. فتحت عينـــي لأرى عمتي واقفة بجانب السرير وهي ترتـــدي تاييرهـــا الأســـود الطويل.

ــ يعني يا خالدة تروحي في سابع نومة من ســـاعة العصر لحد الساعة سبعة. أنا طالعة للعزاء. أصـــل ســـنوية عادل ابن طنط سميحة فوزي حل ميعادها. يا عيني مـــرت عشر سنوات بسرعة على موته في حفر البـــاطن، الشـــاب اتخطف منها وأمه ما زالت تتحســـر عليـــه كـــل يـــوم. الله يصبرها.

ورقة أخيرة

مرت شهور وبدأت أنسى قصة رودلفو وعثمان حفني. وفي أحد الأيام، وبينما كنت جالسة أتعشى مع عمتي، قالت لي فجأة:

ــ نسيت أقول لك، لقيت ورقة قديمة وقت ما كنا بنوضب الشقة ونبيضها، حطيتها وقتها في كتاب من كتبك، وقلت يمكن تلزمك وتكون ضرورية ووقعت منك وأنت ساهية عنها.

ثم قامت عمتي ودخلت حجرتي وعادت بورقة وبالدهشتي، اكتشفت أنها من أوراق عثمان حفني، وقالت:

ــ قلت لك خمسين مرة بطلي تتركي الكتب والأوراق على السرير وتنامي، لأن واحدة منها تروح هنا ولا هنا وأنت لا دارية وتبقى مشكلة.

لم أرد عليها، أخذت الورقة من يدها بسرعة ورحت أقرأ، كانت الورقة مرقمة بالرقم ١٠٢، وقد قرأتها بصعوبة لأن حروفها بدت باهتة جدا ويبدو عليها آثار ماء، أو دموع أو شيء من هذا. لا أدري " مازلت مترددًا في أمري، أعود أو لا أعود، هنا كل شيء يسير على ما يرام، أزرع مع

امرأتي الأرض ونأكل من خيراتها، هؤلاء الهنود طيبون ولديهم قيم ومثل وأخلاق لا تشوبها شائبة والمرأة ممتعة حقًّا وتقوم بواجباتها معي خير قيام وهي حسنة المنظر ولود لا أطيق البعد عنها ليلة واحدة وقد تعودت على طباعي غير أنها ترفض التقبيل أثناء المجامعة، وقد صفعتني بشدة على وجهي، عندما حاولت معها ذلك لأول مرة وكدت أن أضربها بدوري لولا دهشتي التي منعتني عنها، وقد فهمت منها بعد ذلك أن التقبيل من المرفوضات المحتقرات لدى هؤلاء الهنود، ومن الأمور التي لا تجوز، لكن ما عدا ذلك فكله مباح ومن حسن الحظ أنها ولود، أنجبت البنات والبنين، صحيح أنهم كلهم ماتوا، ولم تبق منهم إلا واحدة هي قرة عيني ومهجة فؤادي فاطمة والتي سميتها تيمناً باسم أمي، وهنا ينادونها بفاطو أو فاتو، لأنهم لا ينطقون الطاء إلا مخففة وكأنها تاء. وعلى رغم كل ما أنا فيه من طيب عيش، إلى أن حنيناً هائلاً، وشوقًا عارمًا يأخذاني إلى الوطن، فأنا ما زلت أفكر في أهلي وبلدي وأحلم بهم وبها كل يوم في مناماتي، وتواتيني بها تفاصيل وشذرات من مشاهد طفولتي وهناءتي بها، وعندما تسح دموعي، وتفيض شجوني،

خصوصًا عندما يسكن الليل وينام الجميع، أقول لروحي: غدًا يا ولد تحزم أمرك وترتب للسفر والعودة إلى ديارك مرة أخرى، ولتحملك واحدة من السفن المسافرة إلى طولون أو غيرها من المدن التي توصل بين هنا وبين الديار وما أكثرها على البحر الرومي، وأنت لا يعوزك المال ولا ينقصك شيء، ولسوف تكون عودتك مفاجأة للجميع، الذين ظن أكثرهم أنك مت وفنيت في هذه الفرضة البعيدة من الأرض، ولكن عندما أصل إلى هذا الحد من التفكير أيضًا، أقول لنفسي: ولكن إلى أي عالم تعود، أتعود إلى أولئك الذين يتحكمون في مصيرك مرة أخرى، ويقذفون بك إلى حرب أخرى، وعالم مجهول؟، أتعود لتلقي وتكابد مثل ما لاقيته وكابدته في رحلتك إلى هنا؟، أتعود لتشهد مثل ما شاهدت من مآسٍ وآلام، وفظائع، تتمنى لو أن ذاكرتك تمحوها محوًا حتى تنساها إلى الأبد؟. أتعود لعالم شرير يأكل فيه القوي الضعيف، ويتسلط فيه بشر على أرواح بشر؟، هنا أنت بعيد عن كل هذا، أنت تعيش حياة مسالمة مع هؤلاء البسطاء الذين يكرمونك ويجلونك ويعاملونك معاملة الأخ والوالد والابن، فلم الحماقة والتهور، ولما لا تقنع بما كتبه الله لك

وما أنعم عليك به من نعم؟. وهكذا ما زلت حائرًا مترددًا، لا أكف عن البكاء في بهيم الليالي، والنجـــوم فـــوقي شـــاهدة، والأفق أمامي ممتد بلا حدود، وأظل أفكر وأتساءل: أأعود أم لا أعود؟!